

(خطبة الكتاب)

يلتمس بونز اوف بلازون ، وريمون راهب لى بوي منكم
ياصاحب النيافة اسقف فيفية ، ومن جميع اتباع العقيدة
المستقيمة المباركة والمشاركة في الامنا ، ونريد ان نحن نضع
هذا الكتاب ان نخبركم ونخبر معكم الشعب كله فيما وراء
الالب بأخبار جميع الاعمال الرائعة التي نفذها الرب من
خلالنا بكرمة المعتاد على الدوام ، وبسبب ظروف الحرب وما
داب عليه الأبقون من نشر للاكاذيب وبعد عن الحقيقة ، فان
المهمة التي تولينا القيام بها ستمكن قراء الايام المقبلة من
تجنب معاشرة مثل هؤلاء المرتدين والاستماع الى ارائهم ،
لان اعمالهم ستكون مكشوفة ، وجدير بالذكر ان جيش
الرب ، مع انه عانى من سوط الرب بسبب خطاياها ، قد
انتصر على جميع الوثنيين لان الرب عطوف ودود ولعله
سيكون من الصعوبة بمكان ان نكتب عن كل رحلة من
الرحلات ، لان بعض الحجاج اجتازو دلماشيا (سلافونيكيا)
وعبر اخرون بلاد المجرولومبارديا ، او سافروا بحرا ، لهذا
ركزنا اهتماما بالكتابة عن كونت صنجيل واسقف لى بوي ،
وجيشهما ، دون الاهتمام بالآخرين .

الفصل الاول

السفر خلال دلماشيا وخيانة الاغريق

بعد الرحيل ، نخل الجيش الى بلاد دلماشيا ، وعانى هناك من كثير من المصاعب خلال فصل الشتاء ، والحق اقول بلاد دلماشيا ارض جبلية مهجورة من الصعب الوصول اليها ، فهناك لم تقع اعيننا على حيوانات برية او طيور ، اما سكانها من الهمج فلم يتاجروا معنا ، ولم يزودونا بالادلاء ، بل انهم فروا من قراهم وحصونهم ، وكأنما نزل بهم اذى شديدا من رجالنا المشردين واهني القوى ، وهكذا ازهقوا ارواح هؤلاء المساكين المنهكين من النساء والشيوخ والفقراء والمرضى ، ونبحوهم كما لو انهم مواشي للذبح ، ولعرفة السلاف بهذه الارياف واعتيادهم عليها ، كان من الصعب على فرساننا ثقلي التسليح مطاردة هؤلاء اللصوص وان كانوا غير مسلحين ، وتعقبهم في مسالك الجبال الوعرة وداخل الغابات الكثيفة ، وصبرت قواتنا وصابرت قطاع الطرق هؤلاء ، حيث لم يكن بإمكان جنودنا القتال في الجبال ، كما لم يكن بإمكانهم تجنب الاشتباك بهم ومناوشتهم .

ونتوقف عن سرد روايتنا عند هذه النقطة ، لنروي قصة قتال مجيد خاضه الكونت ريموند في احد الايام ، عندما وجد نفسه مع فرقته محاطين بالسلاف ، الذين أسروا ستة منهم ، وهنا ادرك ريموند وقد ضغط عليه بشدة ان عليه اقتحام صفوف السلاف حتى يصل الى رفاقه ، فأمر بسمل اعين بعض اسراه ، ويتر اقدام بعضهم الاخر ، وجده انوف وايدي الباقيين ثم اخلاء سبيلهم ، وبذلك سلم هو ورفاقه ، وتملك الاعداء رعب شديد بسبب المشهد المرعب الذي وجدوا عليه رفاقهم المشوهين ، فأقعدهم الحزن ، وبهذه

الطريقة نجا الكونت من خطر الموت ، ومن هذا المكان المخيف ، وكان ذلك بفضل الرب واحسانه .

وفي الحقيقة انه لمن الصعب ان نفي بالوصف ما أظهره ريموند من شجاعة وحكمة في دماشيا ، فلقد سرنا هناك قرابة اربعين يوما ، كنا خلالها نواجه سحب الضباب فنكاد نلمس ابخرتها وندفعها بأجسادنا الى الامام ، وكان الكونت وسط هذه المخاطر يحمي يوما اتباعه بالقتال في ساحة الجيش ، وبالمكوث والانتظار حتى يكون اخر من يصل الى حيث مركزه في الركب ، فقد كان بعضهم يعود الى المعسكر وسط النهار او عند الغروب باستثناء ريموند الذي كان يعود يوما الى خيمته بعد منتصف الليل او عند صياح الديكة .

وبفضل رحمة الرب واعمال الكونت ونصائح ادهم عبرنا دماشيا بدون خسائر تذكر بسبب الجوع او الصراع المكشوف ، ويدلل هذا العبور الموفق لهذه البلاد الهمجية ويرشدنا لنؤمن بأن الرب اراد لجيشه من المحاربين ان يعبر دماشيا حتى يتخلص الهمجيون والوثنيون في وقت من الاوقات من همجيتهم ، او ليساقوا مثل المذنبين غير المغفور لهم الى عذاب الرب .

ولدى وصولنا الى سكوتاري ، بعد رحلتنا الصعبة عبر دماشيا ، اكد الكونت مبدا الاخوة ، ووهب ملك السلاف الكثير من الهدايا حتى يتمكن الحجاج من شراء حاجياتهم بسلام ، وليبحثوا عن ضروريات الحياة ، بيد ان هذا كان سرايا ، لاننا ندمنا بمرارة على اعتمادنا على السلام الوهمي ، فقد انتهز السلاف فرصة هذه المناسبة ، وقاتلوا بكل وحشية ، وذبحوا قومنا ، واختطفوا من امكنهم اختطافه من العزل ، ولعلكم تصدقون اننا كنا وقتها نصلي للحصول على ملاذ وليس من اجل الانتقام ، ولكن لماذا نتابع سرد قصة دماشيا الكثيرة هذه ؟

ولدى اقامة المعسكر على مقربة من دورازو ، كنا على قناعة اننا

بتنا في بلادنا ذلك اننا وثقنا بالكسيوس وصدقناه مع اتباعه واعتقدنا انهم اخواننا المسيحيين وحلفاء لنا ، غير انهم انقضوا علينا بوحشية كالاسود ، وهمجوا على رجالنا المسالمين الذين كانوا غارين وغافلين عما يحتاجونه للدفاع عن الذات ، وقام قطاع الطرق هؤلاء ليلا بنبح اهلينا بالحدائق ، وفي الاماكن النائية عن المعسكر وسلبوا منهم ما استطاعوا سلبه ، وعندما كان الاغريق يتصرفون هكذا بدون رادع ، وعد قائدهم حنا كومينوس بالسلام ، غير انهم قتلوا في ظل هذا العهد بونتتيوس رينو ، واصابوا اخيه بطرس بجراح مميتة ، وكان هذان اميران نبيلان ساميان ، ومع انه توفرت لنا الفرصة للثأر فقد استأنفنا رحلتنا واثرنا السكوت على الظلم الذي حاق بنا ، وفي خلال الطريق تلقينا رسائل ارسلها الامبراطور تحدثت عن السلم والاخوة ، او بالحري تحدثت عن بنوتنا للامبراطور ، لكنها كانت كلمات جوفاء ، لانه كان عن يميننا وعن شمالنا وفي امامنا وعند مؤخرتنا الترك والغز والكومان والبشناق والبلغار وسواهم من الشعوب كلهم متربص بنا .

الفصل الثاني

الرحلة عبر الاراضي الاغريقية والعلاقات بين الكسيوس وريموند صنجيل

كان مما زاد في متاعبنا اننا كنا في احد الايام في وادي بيلاغونيا ،
عندما اسر البشناق اسقف لى بوي ، فقد كان قد ابتعد عن المعسكر
قليلا بحثا عن مكان مريح ليقيم فيه ، فرجلوه من على بغلته وجردوه
من ملابسه وضربوه بشدة على رأسه ، غير ان واحدا من البشناق
أنقذه من براثن رفاقه من قطاع الطرق فقد طمع بذهب ادهمر ،
وبهذه الوسيلة بقي لنا هذا الاسقف العظيم الذي لاغنى للعدالة
الريانية عنه ، ولصالح الجنس البشري وكل ذلك برحمة الرب
فعندما سمعت الجلبة في المعسكر ، اندفع الحجاج فأنقذوا الاسقف
من البشناق الذين لم يسرعوا بالاجهاز عليه .

وعندما وصلنا الى قلعة بوسينات ، وجند الامبراطور الخونة
يحيطون بنا ، سمع الكونت ان البشناق قد اعدوا لنا كميناً في
الممرات الضيقة لجبل قريب ، فأحبط تدبيرهم بان اعد لهم كميناً ثم
باغتهم مع فرسانه ، فأنزل بأولئك المرتزقة الخونة ضربة شديدة ،
فقتل العديد منهم وجعل الباقين يلونون بالفرار ، وفي تلك الاثناء ،
وهذه الاحداث قائمة وصلت رسائل تطمين من الكسيوس ، ومع هذا
احاط بنا العدو ، وواجهنا خداع الامبراطور من كل جانب .

وبعد ذلك ببرهة قصيرة وصلنا الى روسا ، وهي مدينة قابلنا
سكانها بكل ازراء و تحقير سافر ، فكان ان فقدنا صبرنا الذي
تحلينا به وعرفناه ، فحملنا السلاح ، واستولينا على المدينة بعدما
استسلمت لنا هدمنا اسوارها الخارجية وغنمنا غنائم كثيرة ثم
غادرنا هذه المدينة بعدما رفعنا اعلامنا وهدفنا «طولوز» شعاع
الكونت الخاص لجمع اتباعه ، وبعد ذلك زحفنا نحو رودوستو ،

وهناك هاجمتنا قوات المرتزقة التابعة لالكسيوس ، فقد كانت متلهفة للانتقام لهزيمة روسا ، بيد اننا ذبحنا اولئك المرتزقة وفرننا ببعض الغنائم.

وفي رودستور رجع الينا مبعوثونا الذين كنا قد ارسلناهم الى بلاط الكسيوس ، وحملوا الينا تقارير مفرحة عن وعود اغريقية ، كان السبب الرئيس وراءها رشوة الامبراطور لهم ، ولذلك ان الاحداث التالية لاحتاج الى تعليق اكثر من ذلك ، وحث مبعوثون اغريق ومن شعبنا ريموند على التخلي عن جيشه والمباراة مع عدد ضئيل من اتباعه للتوجه بدون سلاح الى بلاط الامبراطور ، وابلغوه ان بوهيموند وبنوق اللورين وكونت فلاندرز وامراء اخريين يتوسلون الى ريموند ليعقد صلحا مع الكسيوس بشأن حملة الحجاج ، فالكسيوس قد يحمل الصليب ويصبح قائدا لجيش الرب واضافوا : ان الكسيوس كان على استعداد لتسوية جميع الامور التي تفيد الرحلة مع الكونت ، وذلك فيما يختص به وبالاخرين ، وواضحوا ان غياب مشورة رجل عظيم عشية القتال ، سيكون امرا رديئا ، ولهذا الحوا على ريموند ان يخف الى القسطنطينية على رأس جريدة ، حتى اذا اكتملت الترتيبات مع الكسيوس ، يبدأ الزحف بدون تأخير ، واستجاب ريموند لهذه النصيحة وعمل بها دونما تأخير ، وغادر المعسكر ، وبعدما رتب اموره ، وتقدم الجيش لاداء هذه المهمة ، ونهب وحده بدون سلاح الى القسطنطينية.

والى هاهنا كان تدوين اخبار هذه الاعمال التي اتسمت بالسرور والنجاح ، مهمة يسعد الكاتب بالقيام بها ، غير ان القصة غدت مشحونة بالشدة والحزن ، حتى انه ليؤلني انني قد شرعت فيما تعهدت باكماله ، وبصراحة انني لا اعرف كيف سادون هذه الاحداث على اهميتها: هل سأكتب ان ابشع خيانة حملتها الينا مشورة الامبراطور ، ام سأحكي عن هروب جيشنا بشكل مشين ، وعن عجزه الذي لا يمكن لاحد ان يتصوره ، او سأشرح برواية خبر موت

بعض الامراء الكبار ، فأودعكم نكرى حزن دائم ، ومهما يك من امر من اراد المعرفة فليستفسر من غيرنا .

ومع هذا انني سأروى هاهنا خبر حدث له اهمية قصوى فبينما كان قومنا جميعا يحلمون بمغادرة المخيم والفرار متخلين عن رفاقهم ، وتاركين كل ما حملوه من البلاد النائية ، اعانت اليهم بركة التكفير والصيام المنقذة قوتهم الراسخة الى درجة انهم انفسهم دهشوا لرغبتهم بالفرار ، ويأسهم السالف ، ويكفي هذا فنحن لن نتوقف عند هذه القصة اكثر مما فعلناه .

وفي الاستقبال البالغ الحفاوة الذي اعده الكسيوس وامراؤه لريموند ، طلب الامبراطور من الكونت ان يحلف له يمين الولاء الذي اقسمه له الامراء الاخرون ، ورد ريموند انه لم يحمل الصليب ليدين بالولاء لسيد اخر ، او ليكون في خدمة اي كائن اخر غير الرب الذي من اجله هجر وطنه وممتلكات ابائه ، ومع ذلك فإنه سيأتمن الامبراطور على نفسه وعلى اتباعه وامتعته اذا ماسافر مع الجيش الى بيت المقدس ، غير ان الكسيوس اعتذر له عن الزحف وعلل ذلك بخوفه من ان يقوم الالمان والمجريون والكومان وغيرهم من الشعوب الهمجية بنهب امبراطوريته ، اذا ماتغيب عنها وشارك بالزحف مع الحجاج .

وفي هذه الاثناء علم الكونت بخبر هزيمة رجاله وموتهم ، فاندرك انه قد ضل ، وقام بوساطة بعض قانتنا باستدعاء الامبراطور الى المحاكمة متهما اياه بخيانة الحجاج ، لكن الكسيوس رد بأنه هو نفسه يعرف بأن قواتنا نهبت مملكته لكنه لم يعلم ان شعبه قد اقتترف كثيرا من الاخطاء ، ولهذا فإنه لايرى اننى اساس قانوني لتحقيق الكونت ، ولعل ماحدث هو ان جيش ريموند قد لاذ افراده بالفرار لدى رؤية جيش الامبراطور الذي جاء ليمنعهم من تدمير المدن المحصنة والقرى ، ومع هذا فقد وعد بتقديم ترضية للكونت ، واعطاه

بوهيموند رهينة للوفاء بعهدده وأخيرا توصلنا الى اتفاق وارغم الكونت (ظلما) على اطلاق سراح رهينته.

وفي تلك الاثناء وصل جيشنا الى القسطنطينية ، ثم تلاه وصول الاسقف مع اخيه الذي كان قد خلفه مريضا في بورازو ، وارسل الكسيوس مرارا وتكرارا يعد انه سيمنح الكونت المكافآت بكل سخاء اذا ما أقسم له يمين الولاء مثلما فعل بقية الامراء ، ولكن ريموند كان دائم التفكير في المعاملة الظالمة التي لقيها هو ورجاله ، وسعى الى محو عار هذه الفضيحة ، ومع هذا فقد تأسف بوق اللورين وكونت فلاندرز وامراء اخرون لمثل هذه الافكار قائلين انه من الطيش الكبير ان يحارب المسيحيون المسيحيين بينما الترك على مقربة ، وفي الحقيقة كان بوهيموند قد تعهد للكسيوس بتقديم الدعم له في حال اتخاذ ريموند اجراء ضده ، او اذا تأخر الكونت اكثر في اعتذاره عن اداء يمين الولاء .

وعند هذه النقطة ، اقدم الكونت ، بعد ماتشاور مع البروفندسايين على القسم والتعهد انه لن يعرض هو نفسه او بوساطة اخرين ، حياة الامبراطور و ممتلكاته للخطر و لدى تذكيره بالولاء ، رد بأنه لن يقسم يمين الولاء بسبب ما تعرضت له حقوقه من مخاطر ، و هنا يمكن أن نستدرك أن الكسيوس أعطاه بسبب ذلك القليل من المتاع الدنيوي ، و مرد ذلك تشدده و عناده

الفصل الثالث

حصار نيقية وعبور الاناضول

وبعد جواز البحر خففنا الخطى نحو نيقية التي كانت محاصرة من قبل غودفري وبوهيموند وقادة اخرون من الذين كانوا في الطليعة ، وتتمتع نيقية بحماية طبيعية ودفاعات قوية ، وكانت تحصيناتها الطبيعية تتكون من بحيرة كبيرة تمتد الى اسوارها ، مع خندق ملىء بالماء المتدفق من الجداول القريبة ، وهو يسد المدخل من جهات ثلاث ، واحاط رجال بارعون نيقية باسوار شاهقة ، الى حد ان المدينة لم تكن تخشى هجوم الاعداء ولاقوة اي آلة ، وكانت عرادات الابراج القريبة موضوعة بشكل متناوب ، حتى ان احدالم يكن ليستطيع التحرك بالقرب منها دون ان يتعرض الى الخطر ، واذا ما اراد احد الزحف نحو الامام لم يكن بإمكانه الحاق اي ضرر بها لانه سيكون من السهل جدا ضربه من اعلى البرج .

ومهما يكن من امر ، لقد حاصرها بوهيموند - كما قلنا - من الشمال ، بينما حاصرها الدوق والامان من الشرق ، والكونت واسقف لى بوي من الجنوب ، وللذكرى ينبغي ان ندون ان كونت نورماندي لم يكن حاضرا ، ولهذا ينبغي ان ننكر الواقعة التالية :بينما كان كونت طولوز يرغب في اقامة معسكره هناك زحف الاتراك هابطين من الجبال في تشكيلين ، وانقضوا على جيشنا ، ولاشك انهم قد وضعوا خططهم على امل ان تقا تل احدى فرقتيهم غودفري والامان المعسكرين في الشرق ، بينما تدخل فرقة الاتراك

الآخري الى نيقية من الباب الجنوبي لتخرج من باب اخر فتنقض على قواتنا الفارة فتبيدها بكل يسر وسهولة ، لكن الرب ذي النعمة المعتادة على مخططي السوء ، احبط خططهم ، وبدا الحال وكأنه قد دبر للمعركة بحيث تؤدي المحصلة التالية : فقد جعل الرب الكونت ، الذي كان على وشك ضرب معسكره هناك مع رجاله يهاجم الفرقة التركية التي كانت على وشك دخول نيقية في ذلك الوقت ، وابدأ ريموند في الهجوم الاول العديد منهم وقتل الكثيرين ثم ارغم البقية على الفرار وطاردهم الى جبل قريب ، بينما اجبر في الوقت نفسه - الترك الذين كانوا يخططون للقضاء على الالمان على الفرار وابدأ اكثرهم .

ونصبنا بعد هذا النجاح المجانيق وقصفنا الاسوار ، انما بدون محصلة ، فقد كانت الاسوار منيعة لا تخترق ، وكان الدفاع الشجاع بالذشاب والالات يبعث على الاحباط ، واخيرا حدث بعد مضي خمسة اسابيع من الحصار غير المجدي ، ان اندفعت بمشيئة الرب بعض القوات من حاشية ادهمر واتباع ريموند الى الامام وتمكنت بعد مخاطرة كبيرة من الوصول الى اسفل احد الابراج ، وامكن لهذه القوات تحت حماية دبابة ان تدك البرج دكا وتقوض اساساته وتسويه بالارض ، لكن حال حلول الظلام دون الاستيلاء على نيقية ، وفي صباح اليوم التالي ثبت ان جهودنا كانت بلا طائل ، ذلك ان المدافعين عن المدينة رمموا الاسوار واصلحوها تحت جنح الظلام ، ومع هذا استولى الخوف على نيقية ، فاستسلمت ، وكان السبب الاكبر الذي دفع الى استسلامها هو ان السفن الاغريقية التي سحبت على الارض كانت تطفوا الان على سطح مياه البحيرة ، ونتيجة لهذا فان الترك الذين انعزلوا الان عن اصدقائهم انحنوا لالكسيوس ، حيث لم يعد لديهم امل بوصول النجدة اليهم ، بينما كانوا يشهدون الجيش الفرنجي يزداد يوما بعد يوم ، وزاد من ذلك وصول كونت نورماندي .

وتعهد الكسيوس للامراء ولشعب الفرنجة بتسليمهم كل مافي

نيقية من ذهب وفضة وخيول وامتعة ، وزاد على ذلك بأن قال انه سيؤسس فيها ديرا لللاتين مع ملجأ للمعوزين من الفرنجة ، كما وعد ان يعطي بسخاء كل فرد وجندي في الجيش يتمنى ان يخدمه مدى الحياة ، ووثق الفرنجة بهذه الكلمات المخلصة ، واغتبطوا لاسترداد نيقية ، ولكن ما أن اصبحت نيقية بحوزة الكسيوس حتى تصرف بجحود مع الجيش ، لذلك فإن الناس سيسبونه ويسمونونه بالخيانة مادام حيا .

وفي تلك الاثناء عرفنا انه عندما وصل بطرس الناسك مع حشود المزارعين التي كانت بصحبته الى القسطنطينية ، قبل شهر من وصول قوات الحجاج الرئيسة ، خانه الكسيوس في ان ارغمه مع اتباعه - الذين لم يكونوا على دراية بمواقع الحرب ولا فنونها - على عبور المضائق ، وليس معهم ما يدافعون به ضد الترك ، وبذلك عندما ادرك ترك نيقية انهم وقعوا على فريسة سهلة ، قتلوا بكل سرعة ويسر ستين الفا من المزارعين ، ولم يفلت من هؤلاء الا الذين فروا والتجأوا الى احدى القلاع .

وتجرا المنتصرون وركبهم الغرور بسبب نجاحاتهم ، فأرسلوا الاسلحة التي استولوا عليها والحجاج الذين اسروهم الى ساداتهم والى القادة المسلمين في الاماكن النائية ونشروا في بلادهم كتابات تفيد ان الفرنجة لم يكونوا اهل حرب .

واثر هذه الاحداث غادرنا نيقية واتجهنا نحو الاناضول ، وفي اثناء الزحف تصرف بوهيموند وبعض الامراء الاخرين تصرفا غير لائق او حكيم ، بأن انفصلوا عن الكونت والاسقف والبطريرك ، وفي اليوم الثالث من زحف بوهيموند منفصلا وفيما هو يفكر ان يعسكر رأى جنوده مائة وخمسين الف رجل يزحفون نحوهم في تشكيل معركة ، وبينما كان يقوم بتنظيم صفوف قواته للقتال كما تقتضى الظروف ، ويستعد للاشتباك فقد العديد من رجاله الذين تأخروا خلفه وضلوا الطريق ، وعندما احتدم القتال استدعى بوهيموند

الكونت والدوق لمساعدته ، حيث كانا على مسافة ميلين منه ،
ومالبثت طلبات النجدة ان وصلتهم ، فارتدى الحجاج بروعهم
وامتطوا صهوات خيولهم ، وبادروا مسرعين لقتال العدو ، فور
وصول رسول بوهيموند بالاخبار اليهم .

واحببت امل قلج ارسلان القائد المهاجم ، وخاب فآله لدى رؤية
الفرسان المندفعين ، فاسرع بالفرار ، ويبدو لنا ان عدالة السماء
هي التي جعلت قلج ارسلان الذي اسر الاسرى ، واستولى على
الكثير من خيام بوهيموند يتخلى الان عن امتعته وكان ذلك بفضل
الرب ، ومع اننا لم نر ماسنحكيه ، فان بعضهم قد وصف لنا معجزة
كبيرة رأوا خلالها فارسين وسيمين في درعين لهما بريق ، وأوهما
وهما يركبان امام جنودنا ، ولا يبدو أن طعنات رماح الترك تؤثر
فيهما ، وقد القيا الرعب في قلوب الاعداء حتى انهم لم يستطيعوا
القتال ، ومع اننا علمنا بهذا من اتراك تحولوا عن عقيدتهم وهم الان
يعملون في صفوفنا ، يمكننا ان نؤكد ذلك بدليل اننا كنا نرى ليومين
اثناء زحفنا فرسانا موتى وخيولا ميتة .

ويعد هزيمة الترك وصددهم ، مررنا بسرعة وسلام من خلال
الاناضول ، مع ان الزحف تأخر قليلا بسبب مرض الم بريموند ،
وعلى الرغم ان ماسنحكيه الآن قد يندفـر اذواق الساخريين
المتهكمين ، فانه ينبغي لنا ان نسجله ونرويهِ علنا ، لأنه وصف
لمعجزة من تدبير السماء ، فقد كان دوق ساكسوني يزعم أن مبعوثا
من لدن القديس جيلز (صنجيل) قد تلقى مرتين امرا بان يطلب الى
الكونت : « اهدأ وقرعينا ، فلن تموت من هذا المرض ، لانني ضمنت
لك راحة من عند الرب ، وساكون دائما على مقربة منك ، ومع ان
الكونت كان سريع التصديق ، فقد اضعفه المرض ، حتى انه عندما
نقل من على سريره ووضع على الارض لم يكد يتردد في صدره نفس
من انفاس الحياة ، ولهذا تلا اسقف اورانج الصلوات كما لو كان
ريموند ميتا ، غير ان السماء التي جعلت منه قائدا للجيش بعثته
حالا من الموت واعادته سليما معافي .

الفصل الرابع

سد المنافذ والطرق وبداية حصار انطاكية

وبينما كنا بعد هذا نقترّب من انطاكية ، اقترح العديد من الامراء ان نؤجل القاء الحصار عليها ، خاصة وان الشتاء بسّات على الابواب ، وتوزيع الجيش في الاماكن الحصينة بعدما ارهقه حر الصيف ، كما وقالوا : ينبغي على الجيش انتظار القسوات الامبراطورية والتعزيزات التي اتت اخبار عنها تفيد انها في الطريق من فرنسا ، وقد نصحونا بالدخول الى بعض المواقع والبقاء طيلة الشتاء حتى يأتي الربيع ، وقدم ريموند مع بعض الامراء الاخرين رايًا مضادا لقولهم : لقد وصلنا بارشاد الرب وعطفه ومحبتته ، وفرنا بمدينة نيقية ، وبعونه ورحمته ننتصر ونعيش في امن من الترك ، وفي سلام وانسجام في جيشنا ، لهذا ينبغي ان نعهد اليه بامورنا ، ولا ينبغي ان نخشى الملوك او قادة الملوك ، والانزهب الاماكن ولأيام ، بما ان الرب قد نجانا من مخاطر كثيرة ، وانتصر هذا الراي ، ووصلنا الى انطاكية ، وعسكرنا على مقربة منها الى درجة ان المدافعين عن المدينة قذفوا علينا النار من اعالي ابراجهم فاصابوا رجالنا في خيامهم كما اصابوا خيولنا .

ونفتنم هذه المناسبة لتتولى وصف انطاكية مع تضاريسها ، حتى يمكن لقرائنا الذين لم يروها ان يتابعوا المعارك والهجمات ، ففي احضان جبال لبنان يقع سهل عرضه مسيرة يوم وطوله مسيرة يوم ونصف اليوم ، ويحد السهل مستنقع ، والى الشرق يجري نهر ينساب حول جزء من هذا السهل ثم يعود الى حافة الجبال الواقعة في هذا الاقليم باتجاه الجنوب بحيث لا يمكن العبور من الجبال الى النهر ، ومن هناك ينعطف ليصل الى البحر المتوسط القريب منه ،

وعلى هذا تقع انطاكية في هذه المضائق التي يكونها النهر الذي يشق طريقه في الجبال المذكورة ، بحيث ان تدفق النهر غربا عبر الاسوار الاننى يجعل الارض بينه وبين المدينة تاخذ شكل السهم ، وفي حقيقة الامر ان المدينة التي تقع الى الشرق قليلا ، ترتفع في هذا الاتجاه وتحتضن في داخلها قمم ثلاثة تلال ، وتفصل الجبل الواقع في الشمال عن الجبلين الآخرين هضبة ضخمة بحيث لا يمكن الا بصعوبة بالغة الانتقال من احدهما الى الاخر .

ويزهو التل الشمالي بوجود قلعة عليه ، والاوسط بوجود اخرى تسمى بالاغريقية القسيان(كولاكس) ، اما التل الثالث فليس به الا ابراج ، فضلا عن ذلك فان المدينة تمتد ميلين طولا وتحميها الابراج والاسوار والدفاعات وهي قوية الى درجة انها لاتخشى هجوم الآلات عليها ولا الانسان حتى وإن اجتمع على حصارها جميع بني البشر .

وباختصار قنع الجيش الفرنجي الذي كان يتالف من مائة الف من الرجال المسلحين ، والذي كان معسكرا على طول خط شمالي انطاكية الذي وصفناه ، قنع بالبقاء حيث هو دون ان يشن هجوما على المدينة ، وذلك على الرغم من ان المدينة لم يكن بها الا الفان من الفرسان الممتازين واربعة الاف او خمسة من الفرسان العاديين ، وقاربة عشرة الاف او اكثر من الرجال ، وكانت انطاكية في مأمن من السقوط مادامت ابوابها مغلقة والحراسة عليها قائمة ، لان واديا وسبخ كانت تحمي الاسوار العالية ، وعند وصولنا اتخذنا مواقع لنا بشكل عشوائي ، ولم نعين حراسا ، وتصرفنا بغفاء كبير ، ولاشك ان الاعداء لو عرفوا ذلك لكان بإمكانهم اجتياح اي قطاع ارادوه من مخيمنا .

وسقطت في تلك الاثناء عدة قلاع في الاحواز بايدينا مع بعض المدن القريبة وذلك بسبب الرعب منا مع الرغبة بالتخلص من نير الترك ، وترك بعض فرساننا انطاكية وتجاهلوا المصلحة العامة ،

وجروا وراء مصالحهم الخاصة وانانياتهم في كسب بعض المنافع المادية ، وحتى الذين بقوا في المخيم كانوا يستمتعون بحياة كلها ترف الى درجة انهم كانوا لا يأكلون الا احسن قطع اللحم كالفخذ والاكثاف ، ويحتقرون لحم الصدر ، ولا يفكرون بالمرة في القمح والنبيد ، ولم يكن هناك في تلك الايام الطيبة من يذكرنا باعدائنا المختبئين داخل انطاكية سوى رجال الحرس والمراقبة على طول الاسوار ، غير ان الاتراك سرعان ما اكتشفوا ان المسيحيين كانوا يعيثون في القرى والحقول المجاورة علانية ويخرجون اليها بدون سلاح ، وعلى الرغم من ان معلوماتي قليلة عن تحركات الاتراك ، فان اعداءنا سرعان ما قدموا من حلب الواقعة على مسيرة يومين او خرجوا من انطاكية وقتلوا جنودنا المكلفين بجمع المؤن والذين كانوا متناثرين بدون دفاع ، وقد عكرت هذه الاعمال الانتقامية حياتنا الرغدة ، كما ان توفر الفرص الجديدة للقتل والنهب شجعت المسلمين على شن اغاراتهم بشكل متتابع .

وحرصت هذه الوقائع الحجاج ودفعتهم لان يطلبوا من ريموند القيام بهجوم انتقامي مضاد ، ومع ان بوهموند لم يستطع ان يجمع سوى مائة وخمسين فارسا ، فانه انطلق اخيرا برفقة كونت فلاندرز ، وكونت نورماندي ، ويدفعه الحياء من ان يوسم بالتهرب من الاقدام ، وفي الحقيقة كان السبب الاساسي لخروجه امر الرب ، ولقد امكنهم تحديد مواقع الاعداء فهاجموهم وساقوهم الى حتفهم في نهر العاصي ، ثم عاد المسيحيون الى المعسكر فرحين بالغنائم ، وفي الوقت نفسه رست بعض السفن الجنوبية في ميناء السويدية القريب والواقع على بعد نحو عشرة اميال ، وفي تلك الاثناء كان الاعداء يتسللون تدريجيا من انطاكية فيقتلون السادة والمزارعين منا الذين كانوا يرعون خيولهم ومواشيهم ، ويعودون عبر النهر بما نهبوه الى داخل المدينة .

ونتوقف الان عن متابعة سرد روايتنا بغية وصف الاطار الذي وقعت فيه الاحداث حتى نوضحها ونبين كيفية وقوعها ، فقد كانت

خيامنا مضروبة على طرف النهر مباشرة ، وكان يقطع هذا النهر جسر عائم مصنوع من الزوارق التي كانت موجودة هناك ، ووجد ايضا لانطاكية جسر اخر وقع عند الركن الغربي الاسفل ، ووجدت في مواجهتنا قام عليه مسجدان وكنيسة صغيرة بها قبور .

ونعود الان لنستأنف روايتنا حيث نلاحظ ان قواتنا التي كثيرا ما كان العدو يتفوق عليها عدديا ، كانت تتجرا وتشتبك مع المقاومة الطامعة ، غير ان الترك كانوا يفرون ويتشتتون ويكرون كثيرا فيعاودون القتال ، ومرد ذلك الى انهم اولا كانوا يحملون اسلحة خفيفة هي القسي ، ثم كانوا يتميزون بخفة الحركة على الخيول ، وكانوا من جهة اخرى يمكنهم الاسراع بالعودة عبر جسرهم الذي ذكرناه ، كما انهم كانوا يحبون ان يمتطرونا بنشابهم من اعلى جبلهم ، وانكركم ان جسرهم كان يبعد ميلا عن جسرنا ، وعلى المنبسط الممتدبين الجسرين كانت تدور يوميا بعض الاشتباكات ، وبسبب ان ريموند وادهمر كانا معسكران بالقرب من ضفاف النهر ، فانهما كانا يتحملان ثقل الغارات ، وكلفت هذه الغارات التي اعتمدت على الكر والفر هذين القائدين جميع خيولهما ، ولأن الترك لم يكونوا يتقنون استخدام الرماح والسيوف ، كانوا يقاتلون عن بعد ، ولهذا كانوا يشكلون خطورة في المطاردة او اثناء الفرار .

وفي الشهر الثالث من الحصار ، عندما تغيب كونت نور ماندي ، ومرض غونفري ، وارتفعت الاسعار ارتفاعا هائلا ، تم اختيار بوهيموند وكونت فلاندرز لقيادة حملة للبحث عن المؤن قسرب البهسنا ، وتولى وقتها ريموند وادهمر حماية المخيم ، ولدى معرفة المحاصرين باخبار هذه التطورات استأنفوا غاراتهم المعتادة ، وتحرك ريموند بدوره لمواجهتهم بطرائقه المعتادة ، ووضع رجالته في تشكيل المعركة ثم اندفع يطاردهم الترك بصحبة عدد من الفرسان ، وفي الاشتباك الذي تلا ذلك ، اسر اثنين من المهاجمين وقتلهم على جانب التل ، وطردهم الآخرين عبر جسرهم الى انطاكية ، وكان المشهد اعظم مما يستطيع الرجالة تحمل رؤيته ، فاضطربت صفوفهم ،

والقوا راياتهم ، واندفعوا يجرون نحو الجسر في فوضى شاملة ، وفي امنهم الزائف راحوا يلقيون الصخور والمقنوفات الاخرى على المدافعين عن الجسر ، وتجمع الترك من جديد وشنوا هجوما مضادا عن طريق الجسر وعبر مخاضة قريبة .

وفي تلك الساعة اندفع فرساننا نحو الجسر لمطاردة حصان شارد ، جعلوه يجري بدون فارس ، وتوهم الرجالة حين رأوا ذلك ان الفرسان يفرون فاسرعوا بالهروب امام الهجوم التركي ، وفي اثناء الاشتباك نبج الاتراك الهاربين بلا شفقة ، وتوقف فرسان الفرنجة عن القتال ، ووجدوا انفسهم وسط الحشود الهاربة التي اخذت تتلفتهم وتخطف منهم اسلحتهم ، وتشد خيولهم من نيولها وتجذبهم ارضا من على سهوات خيولهم ، وتبعهم فرسان آخرون اثناء الاندفاع يحدوهم الشعور بالرحمة والحرص على سلامة قومهم ، لكن الترك شددوا في مطاردة الاحياء بلا هوادة ، وسلبوا الموتى مقتنياتهم ، ولم يكف رجالنا عار اللقاء اسلحتهم والفرار دون الشعور بالخل ، بل انهم قفزوا في النهر ليرتطموا بالصخور او ليصابوا بالسهم او ليغرقوا ، ولم يعبر النهر ويصل الى بر الامان الا السباحون والاقوياء .

وفي القتال الذي دار بين جسر الاتراك وجسرنا قتل الترك نحواً من خمسة عشر فارساً من فرساننا وحوالي العشرين من رجالتنا ، ولقى حامل راية اسقف لى بوي واحد النبلاء واسمه برنارد اوف بيزييه مصرعها هناك ، واستولى الترك على راية ادهمر ، واننا نامل الاتكون روايتنا عن عدم خجل جيشنا ، سيبا في لوم عباد الرب لنا وغضبهم علينا ، لان الرب جعل الحجاج الزناة الناهيين يتوبون اليه اولاً ، ولانه من جانب اخر جعل جيشنا يطيب نفساً في بلاد المسلمين .

وانتشر الكلام من معسكرنا عن حالة الرفاه التي كانت تعيشها قوات ريموند وعن انتصاره الكبير ، ووصل بوهيموند وارتفعت نتيجة لذلك الروح المعنوية بين رجاله ، وفي اثناء احدى الغارات على

واحدة من القرى سمع بوهيموند صوت بعض فلاحية وهم يفرون ويطلبون النجدة ، فارسل قوة تستطلع الامر ، فوجدت جمعا من الاتراك والعرب يطاردونهم مطاردة محمومة ، وكان بين القوة الناجدة كونت فلاندرز وبعض البروفانسيين ، وهو اسم يطلق عادة على كل من هو برغندي واوفراني ، وغاسكوني وغوتسي - والفت الانتباه الى ان كل ما سوى ذلك من قوات جيشنا يطلق عليهم اسم الفرنجة ، ولكن العدو لا يميز ، ويستخدم كلمة فرنجة للاشارة الى الجميع ، والان ينبغي ان اعود الى حكايتنا : اندفع كونت فلاندرز بتهور شديد وهو على ظهر حصانه ، اندفع ليواجه الاتراك هكذا حتى لا يناله عار الانسحاب فيما لو اراد الابلاغ عن اقتراب الاعداء ، وبما ان الاتراك لم يالفوا القتال بالسيف ، فقد لاذوا بالفرار ، ومع هذا لم يضع كونت فلاندرز سيفه حتى قتل مائة من اعدائه . ولدى عودة كونت فلاندرز منتصرا الى بوهيموند اكتشف وجود اثني عشر الفا من الاتراك يقتربون من ساقه قواته ، وراى الى يساره عددا كبيرا من الرجال يقفون على تل غير بعيد ، وبعد مشاورات ومداولات مع بقية جيشه عاد ومعه بعض التعزيزات وبادر الى الهجوم ، بينما تبعه بوهيموند مع الحجاج الاخرين عن بعد ، فحمى بذلك خطوط ساقته ، وكان اسلوب الاتراك المعتاد في القتال - حتى عندما يفوقهم عدوهم عددا - محاولة الاحاطة باعدائهم ، وهذا ما صنعوه في تلك المواجهة ، ولكن ثاقب نظر بوهيموند جعله يتوقع حيلتهم .

وفر الترك والعرب الذين هاجموا كونت فلاندرز ، وتخلوا عن القتال عندما ادركوا ان المعركة سيكون القتال فيها وجهالوجهه بالسيوف ، وليس عن بعد بالترشق بالذئباب ثم ان كونت فلاندرز طارد العدو وتعقب ملوله مسافة ميلين ، وكان الاحياء يرون القتلى مطروحين على طول الطريق وكانما هم حزم القمح داخل الحقل ايام الحصاد ، واثناء ذلك القتال وجه بوهيموند ضرباته الى القوات التي كمننت له فقضى على الكمين وعليها غير انه لم يستطع منع الشرازم

سאלفة الذكر من رجالة العدو من التسلسل من خلال اماكن لايمكن عبورها على ظهور الخيل.

ولولا التواضع لعددت هذه المعركة اعظم من الحرب المكابية ، لان مكاببوس قضى بثلاثة الاف على ثمانية واربعين الفا من اعدائه ، في حين دحر فرساننا الاربعمائة ستين الفا من الوثنيين ، ومع هذا نحن لانقلل من مكانة شجاعة مكاببوس ، ولانفخر ببمسالة فرساننا ، ومهما يكن من امر اننا نقول ان الرب الذي كان عظيما مع مكاببوس كان اكثر عظمة مع قواتنا .

وفي الحقيقة جاء ردنا على فرار المهاجمين فيه تناقص بالشجاعة ، الى حد ان الحجاج اخفقوا في تتبع الفارين ، وبالتالي عاد جيشنا المنتصر الى المخيم بدون مؤن ، وكان من شان المجاعة التي اعقبت ذلك ان ارتفعت الاسعار حتى ان اثنين من الصولدي لم تكذ تكون لهما قوة شرائية تعادل نصيب الرجل الواحد من الخبز في اليوم ، كما ارتفعت اسعار الحاجيات الاخرى بالدرجة نفسها ، فما كان من الفقراء والاغنياء الذين ارادوا انقاذ مقتنياتهم الا ان تركوا الحصار ، واما من بقي لقوة روحية فيه ، فقد توجب عليه تحمل رؤية خيوله وهي تموت من الجوع ، وكان التبن قليلا جدا ، ولم تكن سبعة او ثمانية صولديات تكفي لشراء كمية من الحبوب كافية لاطعام حصان واحد لليلة واحدة .

ومما زاد في كربنا ، ان بوهموند ، الذي شهر بما اداه لنا من خدمات في ديار المسلمين ، هدد بالرحيل ، قائلا ان الشرف هو الذي جعله يتخذ هذا القرار ، لانه راى رجاله وخيوله تموت من الجوع ، زد على هذا ، لقد اوضح انه رجل امكاناته محدودة وثروته الشخصية لاتكفي لحصار طويل ، وعلمنا فيما بعد انه اعلن تلك التصريحات لانه كان يطمع في تملك انطاكية واتخاذها لنفسه .

ووقعت في تلك الاثناء هزة ارضية في اليوم الاول من كانون

الثاني (١٠٩٧ م) كما راينا اشارات اعجازية في السماء ، ففي الهزيع الاول من الليل ، كانت السماء حمراء في الشمال بحيث بدا كما لو ان الشمس اشرقت في يوم جديد ، ومع ان ذلك كان توبيخا من الرب لجيشنا ، حتى نتحول الى النور الذي لاح في الظلام ، فان

عقول بعضنا كانت غلغا وكانوا عنيدين الى درجة انهم لم يكفوا عن حياة الصخب والنهب ، ثم ان ادهم حث الناس ليصوموا ثلاثة ايام ، وان يصلوا ويتصدقوا ، وقيموا موكبا ، كما وامر الكهنة باقامة القداسات ، ورجال الدين بترديد المزامير وهكذا اظهر الرب العظيم عطفه ومحفته فأخر عقاب ابنائه حتى لايزداد تفاخر الوثنيين .

واتحول الان الى الحديث عن شخص كدت ان انساه ، لانه البقي به في طي النسيان ، وهو تاتيكوس ، الذي صحب جيشنا عوضا عن الكسيوس ، فقد كان له انف مشوه ، كما كان يفتقر الى اية صفات تعوضه عن ذلك ، كان تاتيكوس يحذر الامراء كل يوم وينصحهم بهدوء ليتراجعوا الى القلاع القريبة ، وليطردوا المحاصرين بهجمات متنوعة وكمانن متعددة ، لكن عندما علم الكونت بهذا كله ، وكان وقتها مريضا من يوم هروبه الاضطراري بالقرب من الجسر ، جمع امراءه واسقف لى بوي ، وفي نهاية الاجتماع وزع ريموند خمسمائة مارك على الجماعة ، شريطة انه اذا فقد اي واحد من الفرسان حصانه يعوض بواحد اخر يشتري من الخمسمائة مارك ومن مبالغ اخرى منحت للاخوانيات .

وكانت اتفاقية الاخوانية هذه مفيدة جدا في ذلك الوقت ، ذلك ان فقراء الناس في الجيش ممن كانوا يرغبون بالانتقال الى الجانب الاخر من النهر للبحث عن المؤن كانوا يخافون من هجوم الاتراك ، وكان القليل منهم فقط هم الذين يرغبون في قتالهم ، ذلك ان خيول البروفانسيين ، التي لم تتجاوز المائة فرس ، كانت هزيلة ضعيفة ،

وابادر القول ان الموقف ذاته كان سائدا في معسكر بوهيموند والقادة
الاخرين .

وبعد التدبير الاخواني ، هاجم فرساننا العدو بكل جراءة ، لان
الذين كان معهم خيول لاقيمة لها ومنهكة القوى ، كانوا يدركون تمام
الادراك انه يمكنهم استبدال خيولهم المفقودة بخيول افضل ، اه ،
يمكنني بالفعل ان استدرك امرا اخر فضايف ان الامراء
عرضوا - باستثناء الكونت - انطاكية على بوهيموند في حال
الاستيلاء عليها ، وبناء على هذا الاتفاق اقسام بوهيموند وبقية
الامراء على ان لا يرفعوا الحصار عن انطاكية لمدة سبع سننوات الا
اذا سقطت قبل ذلك .

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الامور في المخيم ، انتشرت
اقاويل حكمت ان جيش الامبراطور كان يقترب ، وهو جيش قليل انه
كان يتالف من عدة اجناس . من السلاف والبشناق والكومان
والتر كوزلية ، وقد اطلق هذا الاسم على التركوبلية لانهم اما كانوا
من قد تربوا مع الاتراك ، او كانوا ابناء امهات مسيحيات واءاء
اتراك ، وكانوا يخشون الارتباط بنا لسوء معاملتهم لنا طوال
الرحلة . والواقع ان تاتيكوس ، ذلك المشوه ، الذي كان يتلطف
لايجاد عذر يهرب بموجبه ، لم يكتف بتلفيق هذه الاكذوبة فحسب ،
بل اضاف الى اثامه الحنث باليمين ، وخيانة اصدقائه ، فاسرع
هاربا بعد ما تنازل لبوهيموند عن مدينتين او ثلاث هي :
طرسوس ، والمصيصة ، واذنة ، وهكذا غادر تاتيكوس المعسكر
بحجة الانضمام الى جيش الكسيوس ، وتخلي عن اتباعه ، ومضى
ترافقه لعنة الرب ، وجلب بهذا العمل الدنيء العار الابدي على نفسه
وعلى رجاله .

الفصل الخامس

المرحلة التالية من حصار انطاكية وتشديد الحصار

وصلت الآن اخبار تفيد أن قائد جيش الخليفة يتقدم على رأس جيش كبير من خراسان ، وهو قادم لنجدة انطاكية ، وبعد انعقاد مجلس الحرب في خيمة أدهم صدرت الأوامر للرجالة بالدفاع عن المعسكر وللفرسان بالخروج للتصدي للقوة الجديدة ، وكان السبب في صدور هذا القرار أن الجبناء وغير اللائقين بين صفوف الرجالة ، ربما أظهروا جبنا أكثر مما يبدون من شجاعة ، وإذا ماروا قوة كبيرة من الأتراك ، ورحلت الجماعة التي ستقوم بالحملة تحت جناح الظلام ، واختبأت في بعض التلال على بعد فرسخين من المعسكر ، ولم يستطع المدافعون عن انطاكية أن يعلموا برحيلهم ، وأود الآن أن يصغي الى مايلي الذين حاولوا أن يحطوا من شأن جيشنا في الماضي ، وليسمعوا فعلا عساهم اذا فهموا المثل الذي يضربه الرب على رحمته نيابة عنا ، أن يسارعوا الى ارضاء الرب بدموع الندم .

لقد زاد الرب حجم وحدات الفرسان الست من دون السبعمائة رجل الى أكثر من الفين ، وبكل تأكيد إنه ليشق علي الحديث عن شجاعة الجيش ، الذي كان فـرسانه يغنون اغاني الحرب ، ويذشون بكل ابتهاج ، حتى بدا وكأنهم ينظرون الى المعركة المقبلة كما لو كانت من الألعاب الرياضية ، ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن موضع القتال المقبل كان بالقرب من مكان يتدفق النهر عنده على بعد ميل واحد من المستنقع ، وبذلك حالوا دون استخدام الأتراك لحركات الالتفاف المعتادة ، والتي كانت تعتمد على نشر قواتهم ، وفضلا عن ذلك فإن الرب الذي قدم لنا المنح

السالفة الذكر ، قد آمدنا بستة أودية متاخمة يمكن لقواتنا أن تتحرك فيها الى المعركة ، وهكذا كنا خلال ساعة قد زحفنا واحتلنا الميدان ، وما أن سطعت الشمس على أسلحتنا ودروعنا حتى بدأت المعركة وأخذ رجالنا يندفعون الى الأمام ، بينما كان الأتراك يكرون ويفرون ويطلقون سهامهم ثم يتراجعون ببطء .

وقد نزلت بقواتنا خسائر فادحة الى أن تمكنت من دفع الصفوف الأولى من الأتراك الى المؤخرة ، وقد أخبرنا الذين تخلوا عن مواقعهم فيما بعد أنه كان هناك ما لا يقل عن ثمانية وعشرين ألف من الفرسان الأتراك في هذا المعترك ، وأخيرا عندما تدخلت صفوف الأعداء صلى الفرنجة الى الرب ، واندفعوا الى الأمام ، وفي الحال فإن الرب الحاضر أبدا « القوي القدير في المعارك » حمى أبناءه وأهل الوثنيين ، وبعد ذلك طاردهم الفرنجة لقرابة عشرة أميال من مكان المعركة الى قلعتهم شديدة التحصين ، ولدى رؤية هذا السيل الجارف قام الذين كانوا بالقلعة باحراقها ولانوا بالفرار ، وأحدثت هذه النتيجة ابتهاجا وغبطة في المعسكر لأننا اعتبرنا أن احراق القلعة نصرا آخر .

وفي الوقت نفسه شب القتال بشكل اعتباطي في كل مكان باتجاه انطاكية ، لأن أعداءنا كانوا يخططون للقيام بالهجوم على محوريين ، أولهما من المحاصرين (من داخل المدينة) والثاني من قوات النجدة التي لم تكن متوقعة ، ولم يحب الرب طرفا على الآخر ، فقد حارب مع الرجالة وهو يبتسم للفرسان ، ذلك ان النصر الذي أحرزه الرجالة لم يكن أقل قدرا من صد الفرسان للنجادات ، وبعدها كسبنا المعركة وفزنا بالفنائم ، حملنا رؤوس القتلى الى المعسكر ، وعلقناها على أعمدة كمذكر بانس لحالة حلفائهم الأتراك ، وما ينتظر المحاصرين من مصائب ، وحين نتأمل الآن ما حدث نستنتج ان ذلك كان أمر الرب ، لأن الأتراك كانوا قد الحقوا بنا العار من قبل ، حينما غرسوا رأس راية مريم المباركة ، التي استولوا عليها بالأرض ، وهكذا قدر الرب أن رؤية

رؤوس الأصدقاء التي لا حياة فيها ، و المحمولة على القصب ستمنع المدافعين عن انطاكية عن تعبيرنا بعد ذلك .

وكان رسل ملك مصر موجودين لدينا في تلك الاثناء ، وعندما شهدوا ماحدث وراوا المعجزات التي حققها الرب من خلال عبده ، اثنوا على يسوع بن مريم العذراء ، الذي داس تحت قدمه من خلال الشحاذين التعساء ، اعنى الطغاة ، يضاف الى هذا لقد وبتدبيرهم بمصادقتهم ومعاملتهم الطيبة ، وتحدثوا عن الاعمال الممتازة الذي يقوم بها ملكهم للمسيحيين المصريين ولحجاجنا ، وبناء عليه قد برسلنا معهم وكلفناهم بالدخول في صلح ودي معهم .

وتزامنت هذه الأحداث مع قرار امرائنا بتحصين منطقة على التل تشرف على معسكر بوهيموند ، بحيث يمكن فيها احباط أي هجمات معادية محتملة على مخيماتنا ، ولدى اكتمال هذا العمل تمتنت دفاعاتنا حتى اصبحنا مدينة مغلقة من كافة النواحي جاءت محصلة للعمل الجاد وتضاريس الطبيعة ، وهكذا باتت هذه القلعة الجديدة الواقعة الى الشرق منا ، مضاف اليها اسوار انطاكية والمستنقع القريب تحرس معسكرنا ، وتحد من هجمات المحاصرين على المناطق القريبة من الأبواب ، بالإضافة الى ذلك ، كان هنالك نهر يتدفق الى الغرب ، كما كان هناك سور قديم يلتوي عند سفح الجبل حتى النهر ، زد على هذا ان خطة تقوية موقع آخر على الجبل الصغير الواقع عند أعلى الجسر التركي قد لاقت قبولا عاما ، غير ان الات الحصار التي صنعت في المعسكر ثبت انها غير مجدية .

وفي الشهر الخامس ، وبينما كانت سفننا التي تحمل المؤن راسية في الميناء ، بدأ المحاصرون يسدون الطريق الى البحر ويفتكون بقوافل التموين ، وفي اول الامر كان الأتراك يهددوننا دائما ، وكان السبب الأكبر في ذلك هو عدم رغبة قادتنا بالرد عليهم بأعمال انتقامية ، فجراهم هذا ، ولمواجهة هذه المخاطر ، قررنا أخيرا تحصين المعسكر بالقرب من الجسر ، ونظرا لغياب جزء كبير

من قواتنا في الميناء ، فقد تم اختيار بوهيموند والكونت لتأمين عودة المتغيبيين ، وأيضا لنقل الفؤوس والمساحي والأدوات الأخرى اللازمة لبناء القلعة الجديدة ، وعندما علم المحاصرون بمهمة ريموند وبوهيموند ، بدأوا هجماتهم المعتادة ، فاندفعت نحوهم قواتنا إنما بتهور وبدون نظام ، فكان أن تبعثرت وانهزمت بشكل مشين .

وفي اليوم الرابع ، وعندما كان الكونت وبوهيموند عائدتين مع حشد كبير من الميناء ، وهم يخيل اليهم أنهم في أمان من المخاطر ، كان الأتراك يتجسسون عليهم ، ولكن لماذا نسهب في سرد هذه الحكاية ؟ لقد جرى قتال وهربت قواتنا ، وخسرنا حوالي الثلاثمائة رجل ، ولا أحد يعرف كم خسرنا من الأسلاب والأسلحة ، وفيما هم يقتلوننا كالمواشي في الجبال والوعار ، تحركت النجدة القادمة من المخيم للاقاة الأتراك الذين توقفوا عن قتل الفارين ، يا الهي ، يارب لماذا هذه الحزن ؟ ان قواتنا داخل المخيم وخارجه التي تتمتع بخدمات اعظم قائدين في جيشك : ريموند وبوهيموند انتصر عليها الأعداء وانهزمت ، هل نفر الى المخيم ، أم يفر حراس المخيم اليها ؟ « قم ايها الرب وساعدنا تمجيذا لاسمك » ، ولو أن اخبار هزيمة الأمراء وصلت الى المعسكر ، أو لو أننا علمنا بهزيمة كتائب الجيش لهربنا هروبا جماعيا ، وفي اللحظة المناسبة ساعدنا الرب ، وبث الشجاعة في قلوب الذين روعهم من قبل ، فجعلهم يتقدمون الى أول صفوف القتال .

وعندما شاهد يغي سيان ، حاكم انطاكية ، امتعتنا المسلوبة وانتصاره فضلا عن اندفاع قلة من المسيحيين ، بعث بفرسانه ورجاله من المدينة ، ولما كان واثقا من نجاحهم ، أمر بإغلاق ابواب انطاكية خلفهم ، فكأنه كان يطلب من جنوده ان ينتصروا في القتال أو يهلكوا ، وفي الوقت نفسه تحرك الحجاج ، وفقا للأوامر الصادرة اليهم ، الى الامام تدريجيا ، غير ان الأتراك كانوا يجرون هنا وهناك ويطلقون الذناب ، ويهاجمون رجالنا بكل جراءة ، ولم

توقف هذه الأعمال التركية رجالنا ، ومع أنهم عانوا من تلك التحركات ، فانهم انتظروا الوقت المناسب لشن هجوم كبير وكانت الدموع المنهمرة والصلوات الصاعدة تجعل المرء يعتقد ان رحمة الرب قريبة .

ولدى حضور ساعة المواجهة ركع فارس بروفانسي ، عالي المحتد ، هو ايزوارد اوف جانجيز ، يصحبه مائة وخمسون من المشاة ، وشد العون من الرب ، وشجع رفاقه على الاندفاع قائلا : « اهجموا ياجنود المسيح » وألقى بنفسه على الأتراك ومع اندفاع قواتنا الى الهجوم تحطمت غطرسمة العدو ، وكان الباب مغلقا ، والجسر ضيقا ، والنهر واسعا ، ثم ماذا بعد ؟ لقد سحق الأتراك الخائفون سحقا ، أو قتلوا ، أو حطمتهم الأحجار في النهر ، فلم يكن هناك مهرب ، وكان يمكن لليوم ان يمر بسلام على انطاكية ، لولا ان يغى سيان فتح الباب على مصراعيه ، ولقد سمعت بنفسى من العديد ممن شارك في هذا اليوم ، أنهم أوقعوا عشرين شخصا أو أكثر من الأتراك في النهر على محاذاة سور الجسر ، وبرز هناك غودفري بشكل كبير ، حيث سد الطريق على الأتراك المتزاحمين للدخول من الباب ، وأرغمهم على الانشطار الى صفيين وهم يتسلقون المرتفعات .

وبعد قداس ديني ، سار المنتصرون السعداء الى المخيم ومعهم اسلاب كبيرة وخيول كثيرة ، أه ايها الأخوة النصارى ، يامن تبعثمونا للوفاء بنذركم ، كم كنا نود لو أنكم شهدتم هذا الحدث الجدير بالتنويه ، فلقد أسرع فارس ، وهو خائف من الموت ، بالقاء نفسه في أعماق النهر ، فتلقفه رفاقه الأتراك ، لكن القى به من على ظهر حصانه وهكذا غرق في النهر مع الطغمة التي تعلقت به ، لقد كان في رؤيتنا للحشود العائدة مكافأة على أهوال ذلك اللقاء ، فراح بعضهم يجرون هنا وهناك بين الخيام على خيول عربية وهم يعرضون على اصدقائهم كنوزهم الجديدة ، وأخذ بعضهم وهم في رداء أو رداءين أو ثلاث من الحرير ، يثنون على الرب ، الذي أنعم

عليهم بالنصر والعطايا ، بينما راح آخرون ، وقد تسربلوا بثلاث سابغات أو أربعة ، يعرضون تلك الأسلاب شواهد على انتصارهم ، وفي الوقت الذي كان بإمكانهم اقناعنا بهذه العلامات وغيرها من الأسلاب الأخرى ، بتفوق قدراتهم القتالية ، لم يكن بوسعهم تزويدنا بأي معلومات دقيقة عن عدد القتلى ، لأن إبادة الأتراك تمت ليلا ، وبناء عليه لم تجلب رؤوس قتلى الأعداء إلى المعسكر .

ومع ذلك اكتشفت في اليوم التالي جثث بعض أعدائنا في خندق قريب من أحد المرتفعات استخدمه المسلمون كمقبرة ، وجرى ذلك أثناء محاولتنا إقامة تحصينات أمام جسرهم ، وأثارت رؤية غنائم الأتراك ، رجالنا الفقراء ، فانتهكوا حرمة المقابر ، فنبشوا القبور وأخرجوا جثث الأتراك وهنا تجلى حجم الانتصار ، فلقد كان عدد الموتى قرابة ألف وخمسمائة ، وقد أغفلت ذكر الذين دفنوا بالمدينة ، والذين جرفتهم مياه النهر ، وألقيت الجثث بعد هذا في نهر العاصي حتى لاتعيق الروائح الصادرة عنها والتي لاتطاق العمل في بناء القلعة .

وكان البحارة الذين انهزموا وأصيبوا أثناء هروب الكونت مع بوهيموند ، مابرحوا يعيشون في رعب ويتوجسون حول النتيجة ، غير أنهم مابرحوا يمجدون الرب ، كما لو أن رؤية العدد الكبير من الموتى قد بث فيهم القوة ، فالرب دوما يؤدب أبناءه ويشجعهم ، وهكذا شاء الرب أن صار الأتراك الذين قتلوا جاملي الطعام على طول الساحل وضفاف النهر ، وتركوهم طعمة للوحوش والجوارح ، صاروا هم أنفسهم بدورهم طعاما في ذلك المكان للوحوش نفسها وللجوارح ذاتها .

وبعد تكريس الانتصار وماصحيه من احتفالات ، واثرا اكتمال العمل في القلعة ، حوصرت انطاكية من الشمال ومن الجنوب ، ثم ثار الجدل حول اختيار أمير يتولى حراسة القلعة الجديدة ، ذلك أن

المسائل الخاصة بالجماعة كانت دوما موضع استخفاف ، لتواكل الجميع واعتقادهم أن آخرين سيقومون بذلك العمل ، وفي الوقت الذي طلب فيه بعض الأمراء الراغبين بالمال أصوات نبلائهم للحصول على الوظيفة ، انتزع الكونت - خلافا لهوى حاشيته - زمام الأمور ، وكان دافعه لذلك من جانب تبرئة ساحته من تهمة التراخي والبخل ، ومن جهة أخرى ليبين منهج الحكمة والقوة للخاملين .

وفي خلال الصيف التالي ، كان ريموند قد اقمعه المرض الخطير والطويل ، وبلغ العجز به خلال الشتاء حدا دفع الى القول انه لايميل الى القتال او العطاء ، ومع انه أدى خدمات جليلة ، فقد عد شخصا لا أهمية له ، لأن الناس كانوا يعتقدون انه قادر على بذل المزيد من الجهد ، ولقد تحمل عداوة مردها التشكك ، في قوة تمسكه بالمسيحية حتى كاد الحال يقود الى افتراقه عن البرفانسيين ، وفي هذه الأثناء لم يعر الكونت هذه الأهانات أدنى اهتمام ، ثقة منه في ان الأنطاكيين المحاصرين ، وقد انهزم معظمهم سييلونون بالفرار ، بيد انه حدث عكس ماتوقع حيث احاط به الأعداء ذات صباح عند بزوغ الفجر .

وهنا تجلت معجزة كبرى تدل على حماية الرب ، وذلك عندما تمكن ستون من رجالنا من صد هجمة قام بها سبعة الاف من المسلمين ، وأروع من ذلك ان سيلا من الأمطار غمر في اليوم السالف الخندق المحيط بالقلعة وملاه بالماء ، وهكذا لم تكن هنالك عقبة تعيق حركة الأعداء الا ارادة الرب وقوته ، ومع ذلك انني ارى ان ذلك لايعني تجاهل الشجاعة العظيمة لكثير من الفرسان الذين كانوا يتولون حراسة الجسر ، فقد انعزلوا ووجدوا انفسهم عاجزين عن الهرب ، حيث كانت المسافة بينهم وبين قلعتهم مقدار رمية سهم ، فاندفع هؤلاء الفرسان نحو الامام في مواجهة المسلمين في تشكيل دائري نحو طرف بيت قريب ، وهناك واجهوا بكل شجاعة و

اصرار ، الهجوم المحيط بهم و الذي جاء على شكل سحب منهمر من النشاب و سيل هائل من الصخور.

وجذبت في الوقت نفسه جلبة القتال قواتنا ، وهكذا انقذت القلعة من الذين هاجموا ، وتوقف الأتراك عن اندفاعهم عندما رأوا اقتراب النجدات ، وتم القضاء على الذين كانوا في المؤخرة ، مع انهم كانوا على مقربة من جسرهم ، وتم اصلاح خندق القلعة وأسوارها مرة أخرى ، بحيث يمكن لحاملي الطعام ان يعودوا بأمان من الميناء ، وهكذا انطفأ الغضب الذي كان قد حاق بالكونت ، وانعكس الى درجة انهم نادوه باسم « ابو جيشنا والمدافع عنه » وذاع في أعقاب هذه الوقائع صيت ريموند لأنه تصدى لهجمات العدو وحيدا ، وبعد سد طريق الجسر وباب الجسر ، صار الأتراك يطلعون من باب آخر يقع في الجنوب بالقرب من النهر ، ومن هناك قادوا خيولهم الى زاوية بين الجبال والنهر كانت مرعى رائعا .

وبعد الاستطلاعات وتحديد الوقت ، دار فريق من رجالنا حول المدينة بعبور جبل وعر ، بينما خاض آخرون في النهر ، وقاد هذا الفريق ألفي حصان بعيدا عن المرعى ، ولم يدخل في هذا العدد البغال واناث البغال التي استردت ، فجدير بالذكر ان الكثير من اناث البغال كانت قد تعرضت للسرقة في وقت سالف من على الطريق من البحر الى انطاكية ، وذلك على يد الأتراك ، وبعد استرداد هذه الحيوانات اعيدت الآن الى أصحابها بعد التعرف عليها .

وحصن بعد ذلك مباشرة تانكرد ديرا كان يقع على الطريق الآخر من النهر ، ونظرا لأهميته في سد طريق المدينة ، اعطى كونت طولوز الى تانكرد مائة مارك فضي ، كما أسهم الأمراء الآخرون كل حسب امكاناته ، وهكذا يسعدني ان اذكر أننا على الرغم من كوننا أقل عددا من عدونا ، فان نعمة الرب جعلتنا اقوى منه كثيرا ، وفي تلك الأونة كان حملة الأخبار الذين يصلون الينا يبلغون عن تحرك

نجدت للعدو ، وفي الواقع لم تنتشر هذه الاقوايل من عند الارمن والاغريق فقط ، بل ايضا من المقيمين في انطاكية ، والفت نظرکم الى ان الاتراك قد احتلوا انطاكية قبل اربع عشرة سنة، ولعدم وجود خدم فانهم استخدموا الارمن والاغريق لذلك الغرض ، وزوجوهم من نساينهم ، ومع هذا كان هؤلاء يميلون الى الفرار الينا بالخيول والاسلحة بمجرد ان يتاح لهم الهرب ، وهرب كثير من الصليبيين الجبناء مع التجار الارمن عندما انتشرت هذه الشائعات ، ولكن من ناحية اخرى عاد الفرسان الاقوياء من عدة قلاع وجلبوا معهم اسلحتهم بعدما اصلحوها وعدلوا من شأنها ، وعندما اختفى الجبن والتخايل بدرجة كافية ، او بالحري عادت الجراة ، التي كانت في كل وقت وزمان كفيلة لمواجهة كل الأخطار مع الأخوة ومن اجلهم ، فان احد (الارمن) من رجال الاتراك المحاصرين وثق بأمرائنا الى حد انه كان سيسلمنا انطاكية .

الفصل السادس

الاستيلاء على أنطاكية

أرسل الأمراء بوهيموند و غودفري ومعهم أيضا كونت فلاندرز ، عقب اجتماع مشترك للتحقق من هذه العرض ، وعند وصولهم الى احدى تلال أنطاكية في منتصف الليل ، وصل رسول من (الأرمني) رجل الأتراك الخائن ، وأمرهم بقوله له : « لا تتحركوا حتى يمر أمامكم فصبح » .

وكان من المعتاد أن يمر ثلاثة رجال أو أربعة بجذاء شرافات الأسوار وهم يحملون المصابيح وذلك بهدف ايقاظ الحرس وتنبههم ، وعندما مرت المصابيح ، وضع رجالنا الرابضون في ظلال الأسوار سلما وبدأوا يتسلقون ، واعتلى السور فرنجي يدعى فولغير ، وهو بلا ريب أخو بود يلوس أوف تشارترز ، اعتلاه بلا خوف وتبعه عن كثب كونت فلاندرز الذي أمر بسوهيموند والبوق أن يتبعاه ، وعلى أية حال ، انقطع السلم أثناء تداركهم في الصعود ، إلا أن الذين تمكنوا حقا من الوصول الى أعلى السور نزلوا الى داخل المدينة ، وفتحوا أحد الأبواب بالقوة ، وبخل حملة الصليب بهذه الوسيلة ، وقتلوا كل من صدقوه ، وعند الفجر صاحوا صيحات مرعبة جدا ، حتى أن المدينة اضطربت كلها وبكى الأطفال والنساء .

وراح بعض المسيحيون في قلعة ريموند القريبة ، وقد ايقظتهم الجلبة ، يرددون: لقد وصلت نجدات الى العبودية، ورد عليهم آخرون : «إن أصوات الألم ليست كأصوات الفرح » .

ومع بزوغ الفجر رفصرت اعلامنا فوق التل الجنوبي
لانطاكية ، واصاب الهلع اهل انطاكية لرؤيتهم قواتنا على التل
المشرف على المدينة ، وجعل الرب الفوضى تسبب بين
صفوفهم ، فاندفع بعضهم من الأبواب ، وقفز آخرون من
الأسوار ، ولم يصمد أحد منهم ، ولم يقاتل ايا منهم ، وبعد أشهر
عديدة من الحصار المضني تكشف أمامنا المشهد السعيد
التالي ، إنه مشهد المدافعين عن انطاكية الذين لم يستطيعوا منذ آمد
الفرار من المدينة ، ولا أن يتجنبوا الآن الموت إذا ما تجرأوا على
الفرار.

ووقع لنا هناك حادث ممتع رائع ، وهو أن بعض الأتراك
كانوا ، يحاولون الفرار دون أن يراهم أحد من خلال الفتحات التي
تتخلل التلال في الشمال ، وبينما هم يفعلون ذلك لقيتهم مجموعة من
حملة الصليب ، وهنا اضطر الأتراك وقد حبطت خططهم الى
التراجع فهمزوا خيولهم بسرعة كبيرة ، الأمر الذي جعلهم يسقطون
جميعا من فوق الهضاب الصخرية ، ولقد كان سقوط الأتراك القاتل
هذا مشهدا سعدنا برؤيته حقا ، بيد أننا حزنا لضياع أكثر من
ثلاثمائة حصان لاقت حتفها هناك.

ولن نقف عند وصف كميات الأسلاب ، فلكم أن تتصوروا أي
شيء يمكن أن يتبار الى ذهنكم وتحسبوا أكثر منه ، وفي الحقيقة
من غير الممكن لنا تقدير عدد القتلى من الأتراك والمسلمين ، ومن
العبث حكاية القصة بالتفصيل ووصف طرق الموت المختلفة ، وفي
الوقت نفسه كان بعض المدافعين يراقبون من موقعهم فوق تل
متوسط مقتل رفاقهم وينتظرون توقف القتال ، وعلى كل حال لقد
اختاروا أن يدافعوا عن قلعتهم ، غير أن يفي سيان ، وقع أثناء
هروبه من أحد الأبواب ، في يد بعض الفلاحين الأرمن فقطعوا رأسه
وقدموه لنا بعد ذلك هدية ، و اعتقد أن يفي سيان الذي كان قد قطع
رؤوس العديد من الأرمن ، قد قدر له بارادة الرب التي لا توصف أن
يقطع رأسه على أيدي فلاحهم.

لقد سقطت أنطاكية في اليوم الثالث من شهر حزيران ، وكانت هدفا للهجوم منذ حوالي الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول من العام المنصرم ، وأحجمت قواتنا عن مهاجمة القلعة ، بينما راح رجالنا يفحصون الغنائم ويدونون لها سجلا ، وأمعنوا في نسيان الرب مانح جميع هذه النعم ، فأفرطوا بالأكل بنهم شديد وبذخ واهتموا بالراقصات .

وبعد ذلك بثلاثة أيام ، أي في اليوم الخامس من حزيران نفسه ، حاصر المسلمون حملة الصليب ، وهكذا فإن حملة الصليب الذين كانوا قد حاصروا أنطاكية التركية برحمة من الرب وجدوا أنفسهم وقد أحاط بهم الأتراك وفقا لمشينته ، ومما زاد من خوفنا أن الحصن الكبير ، الذي كان بكل المعايير قلعة حقيقية ، كان بحوزتهم ، وقد وحد صفوفنا الرعب وحاصرنا القلعة ، لكن كربوغا ، مقدم الأتراك ، عسكر بعد وصوله بوقت قصير على بعد قرابة ميلين من أنطاكية ، وذلك اعتقادا منه أن المعركة ستكون خارج المدينة ، ثم تقدم بصفوف منتظمة نحو جسر المدينة ، وفي اليوم الأول دعم رجالنا دفاعات قلعة الكونت ، خشية أن يستولي الذين في القلعة - من الأتراك - على أنطاكية لو خرج المسيحيون الى القتال ، وشعروا من جانب آخر أنهم إذا ما تخلوا عن قلعة الجسر ، سيستولي العدو عليها وسيسد طريق الخروج الى القتال ، لأنه كان مسيطرا على مخارج المدينة .

وكان روجر أوف بارنيفيل ، وهو فارس مشهور ومحبوب ، في أحد الأيام يتابع تقهقر الأتراك ، فوقع في أيديهم وقطعوا رأسه ، فاستولى الحزن آنذاك والرعب على رجالنا مما دفع بالكثيرين منهم الى اليأس من القتال ، غير أنه نزلت بأعدائنا نكستان بالمعارك التي جرت بعد ذلك ، وعلى الرغم من ذلك هاجموا في اليوم الثالث القلعة بشدة وعنف الى حد أنه بدا أن قدرة الرب هي التي كانت تحميها وتوقف الأعداء ، لأن الأتراك ، أصيبوا لسبب غير معروف - بالهلع الشديد أثناء عبورهم الخندق المليء بالماء

والمحيط بالقلعة ولم يتمكنوا من هدم الأسوار ، وبادروا بالفرار ، وبعدها انسحبوا الى مسافة قصيرة ، رأوا أنه ليس هناك من سبب للفرار غير خوفهم ، ولذلك عاودوا الهجوم ، وشددوا هجماتهم بعنف كما لو كانوا يريدون محو أثر تراجعهم المشين ، غير أن الرب بث الرعب في قلوبهم مرة أخرى ، وبناء عليه عاد رجال كربوغا الى معسكرهم باليوم نفسه.

وأحرق حملة الصليب القلعة ، وانسحبوا الى داخل انطاكية ، وذلك بعدما عاد أعداؤهم في اليوم التالي ومعهم معدات ثقيلة ، وزاد رعب الفرنجة وقلقهم ، في حين ارتفعت ثقة الأعداء بأنفسهم حتى عنان السماء ، لأنه لم يعد لدينا أمل خارج المدينة ، في وقت احتفظ فيه أعداؤنا بالقلعة الرئيسية داخل انطاكية ، ودفعت هذه العوامل المشجعة الأتراك الى التقدم نحونا عن طريق القلعة ، غير أن المسحيين ثقة منهم بمواقفهم الاستراتيجية ، وأراضيه المرتفعة زحفوا ضد الأعداء وهزمهم من أول هجوم ، بيد أنهم غفلوا عن هجوم مضاد وقع عليهم ، وشغلوا أنفسهم بغنائم المعركة ، فنزلت بهم هزيمة مشينة ، وعند واحد من مداخل انطاكية لاقى أكثر من مائة من المسيحيين حتفهم ومات معهم عدد كبير من الخيول ، ونتيجة لذلك بات الأتراك يحلمون أنهم عند دخولهم الحصن سيقومون بمهاجمة المدينة السفلى.

كان هناك واد صغير يتميز بسهل صغير وعين ماء ، وقد وقع بين جبلنا وقلعتهم ، ولذلك بذل الأتراك كل جهودهم لاكتساحنا وطردنا من طريقهم ، لأن النزول الى انطاكية لم يكن ممكنا إلا عن طريق جبلنا ، واستمر القتال عنيفا وشديدا طوال النهار من الصباح الى المساء بشكل لم يسمع بمثله من قبل ، وفي غمار وابل النشاب والصخور التي انهالت ، وتحطت قعقعة السلاح التي لم تتوقف ، وبعد مقتل أعداد كبيرة من المحاربين ذهب قواتنا في

- ٢٦٢٠ -

سبات نوم عميق ، وكانت هذه بدون شك محنة رهيبية وغير عادية بالنسبة لنا ، وإذا أردت أن تعرف السبب ، لقد توقف القتال ليلا .

وعند صلاة العتمة ، وقت الثقة برحمة الرب ، فقد الكثيرون الأمل ، وربطوا أنفسهم بحبال ودلوها من أعالي الأسوار ، وفي المدينة نشر الجنود العائدون من القتال أشاعة فيها إن قتلا جماعيا ينتظر المدافعين ، ومما زاد الرعب أنهم لانوا بالفرار هم أيضا على الرغم من حث بعضهم المترددين على الصمود ، ومع ذلك فإن رحمة الرب - كما قلنا - كانت حاضرة ، حتى والمسيحيين في محنة ويأس ، فكان جزاء الرب للداعين له من أبنائه مواساة لهم في المصائب .

الفصل السابع

حصار كربوفا لأنطاكية والعثور على الحربة المقدسة

هنا يبدأ العثور على الحربة المقدسة :

أظهر الرب قدرته واحسانه في أعقاب الاستيلاء على أنطاكية ، بأن اختار فلاحا بروفانسيا ليقوم بتعزيزتنا ويسلم الرسالة التالية الى كل من ريموند وأدهم:

« لقد أنذرنى القديس أندروز ، مبعوث الرب وسيدنا يسوع المسيح منذ زمن في أربع مناسبات ، وأمرنى أن أبلغكم ، وأن أعيد اليكم - عند سقوط أنطاكية - الحربة التي اختبرقت جنب مخلصنا ، وعندما انطلقت اليوم مع آخرين للقتال خارج أسوار المدينة ، وقعت في يد اثنين من الفرسان ، وكنت أسحق في أثناء انسحابي ، فدفعت الى صخرة فاطر الهمة مغتما ، وعندئذ تجلى لي القديس أندروز ورفيق له ، وحذراني - وأنا مذنب تعس ما زال أترنج من العذاب والخاوف - من مزيد من الهموم إذا لم أسارع الى تسليمكم الحربة .

وعندما طالبه الكونت والأسقف بتفاصيل عن طبيعة ما تكشف له وعن تعليمات القديس أندروز رد البروفانسي بقوله: « أثناء الحصار الفرنجي لأنطاكية أيام الهزة الأرضية الأولى ، استبدبني الخوف ، ولم أعد أتفوه إلا بقولي : « أنقذني يارب » وكنت وحدي مستلقيا على الفراش في كوشي ، دون أصدقاء يبثون الطمأنينة في قلبي ، وكان الظلام مخيما ، وكما قلت استمرت الصدمات لوقت طويل مما زاد في قلقي ، وفي تلك اللحظة ظهر لي رجلان في ملابس

زاهية ، كان لأكبرهما شعرٌ أحمر يتخلله البياض ، ولحية بيضاء كثة عريضة ، وعينان سوداوتان ، ومظهر لطيف ، وكان متوسط القامة ، وكان رفيقه أطول منه « وأبهى هيئة من أبناء البشر » وسألني الرجل الأكبر : « ماذا تفعل ؟ » وكنت وحيدا ، وقد شعرت بالرعب ، فقلت بصوت مرتعش : « من أنت ؟ » فقال : « قم ولا تخف واستمع الي ، إنني أندروز الرسول ، باءر الي تأمين لقاء مع اسقف لى بوي وكونت صنجيل وبطرس ريموند من هـوت بول ، وأسألهم : لماذا لا يعظ أدهمر بالكلمة ، ويحث الناس ويباركهم بالصليب الذي يحمله كل يوم ، فهذا سيكون فيه بركة عظيمة لهم بكل تأكيد » ثم أمرني قائلا : « اتبعني وسأكشف لك عن مكان حربية مخلصنا التي يجب أن تعطيتها للكونت ، لأن الرب قد جعلها له عند مولده » .

فغادرت فراشي وأنا في رداء نومي فقط ، وتبعته الى داخل انطاكية حيث كنيسة الرسول بطرس المبارك عن طريق الباب الشمالي ، والذي كان المسلمون قد بنوا أمامه مسجدا ، وكان هناك مصباحان يضيئان مدخل الكنيسة كما لو كنا في رابعة النهار ، ثم إن أندروز أمرني بقوله : « ابق هنا » ثم أمرني أن أقف بجوار العمود الذي كان قريبا من الدرجات الجنوبية المؤدية الى الهيكل ، وبينما بقي رفيقه على مسافة خطوات من درجات الهيكل ، مد القديس أندروز يده الى جوف الأرض وسحب الحربة ووضعها بين يدي ثم توجه القديس أندروز بحديثه الي قائلا : « أنظر الي الحربة التي اخترقت جنب المسيح ، الذي كان السبب في خلاص العالم » وفي الوقت الذي جرت فيه دموع الفرح على وجنتي ، أمسكت بالحربة ، وخاطبت القديس أندروز وأنا أجهش بالبكاء : إذا كنت تود ذلك ، فأنتي سأخذها من الكنيسة و سأضعها بين يدي الكونت .

واجابني القديس أندروز : انتظر حتى ما بعد الاستيلاء على انطاكية ، ثم عد وبرفتك اثني عشر رجلا ، وابحث عن الحربة في المكان عينه الذي كشفت لك عنها فيه ، فسأخفيها الآن » ثم دفنها في

الموضع ذاته ، وقادني بعد هذه التجليات من فوق أسوار المدينة إلى
كوخي ، ثم اختفى بعد ذلك «

و بكلمة موجزة إنني بعدما تأملت في حالتي الرثة و عظمتك لم
أجرؤ على القدوم اليك ، و بعد ذلك رحلت إلى قلعة قريبة من الرها
بحثا عن الطعام و بعد هذا أتاني القديس أندروز في الهيئة نفسها
ومعه رفيقه نفسه ، وكان ذلك في فجر اليوم الأول من الصوم الكبير
عند صباح الديكة ، وسألني ، وكان قد غمر البيت نور عظيم: هل
أنت نائم؟ ونبهتني كلماته فأجبت: « لا ياسيدي ومولاي أنا
مستيقظ » ثم سألتني: « هل أبلغت رسالتني الأخيرة؟ » فأجبت: «
» سيدي - ألم أتوسل اليك أن ترسل شخصا أكثر جدارة مني
اليهم ، لأنني خشيت من حالتي الرثة ، فم أجرؤ على المثول بين
أيديهم «

فسألني مرة أخرى: « الا تعرف السبب الذي من أجله قادك الرب
الى هذا المكان ووافق حبه العظيم لك ، واهتمامه الخاص
باختيارك؟ لقد طلبك هنا لكي يسوغ اعتباره لمن يختارهم ، إن حبه
لك كبير جدا الى درجة أن القديسين يرقدون الآن بسلام ، وهم
مدركون لنعممة الرغبة الربانية ، ويودون لو عادوا لحماس
ودما ، وقاتلوا الى جانبك ، لقد اختارك الرب مسن بين جميع
الناس ، كما تجمع حبوب القمح من بين الشوفان ، لأنك تقف فوق
كل من جاءوا من قبلك ، أو من سيأتون بعدك ، بجدارتك
وبركتك ، مثلما يفوق ثمن الذهب ثمن الفضة».

« وبعد رحيلهما وقعت فريسة لمرض هدد بصري ، حتى أنني
بدأت أتخلص من مواردني المحدودة ، عندما استنتجت فجأة أن هذه
الأمراض داهمتني لعصيانني أوامر الرسول ، وهكذا عانت
الطمأنينة الي ، فعدت الى الحصار ، وفكرت مرة أخرى بحالتي
الرثة ، فلم أقل شيئا لأنني خشيت أنني إذا ما أبلغتكم أن تصرخوا
أنني رجل يتضور جوعا جنتكم بهذه الأقصوصة من أجل ان أحصل

على الطعام ، وبعد أمد قصير كنت أستريح مع مولاي وليم بطرس في خيمة في ميناء السويدية عشية أحد السعف ، عندما تجلى لي أندوروز المبارك في هيئته السالفة نفسها و معه رفيقه السالف الذكر ، وقال لي : لماذا لم تسلم رسالتي الى ريموند وأدهمرا؟ فأجبت قائلا : يا سيدي ألم أتوسل اليك أن تبعث بديلا أنبه مني ، يولونه اعتبارهم ، كما يجب أن تعرف أن الأتراك يقتلون كل شخص يسلك الطريق الى انطاكية.

وهنا رد القديس اندروز: لا تخف ، فلن يؤذيك الأتراك ، ولكن ابلغ الكونت الا يغطس في نهر الأردن عند وصوله ، بل عليه أن يجدف عبر النهر أولا في قارب ، وعندما يصل الى الطرف الآخر ، يرش على جسده الماء وهو مرتد قميصا وسراويل من الكتان ، وبعد ذلك عليه أن يحفظ ملابسه المجففة مع الحربة المقدسة ، ويمكن لمولاي وليم بطرس أن يشهد على صحة هذا الحديث مع أنه لم ير القديس اندروز.

فأطمأنت نفسي و عدت الى القوات المحاصرة لانطاكية ، لكني لم استطع أن أجمعكم حسبما رغبت ، وهكذا ذهبتم إلى مرسى المصيصة ، وبينما أنا هناك أنتظر - وقد نفذ صبري - لأبحر الى قبرص طلبا للمؤونة ، وأجهني القديس اندروز بتهديدات شديدة إذا أنا لم أعد الى انطاكية ، وأملي عليك تعليماته ، وأنداك بدأت وأنا أفكر بطريق السفر الذي سيستغرق ثلاثة أيام من المصيصة الى معسكر الحجاج ، بدأت أبكي بشكل مجنون ، لأنني أدركت استحالة ذلك ، وفي النهاية ، وبناء على الحاح مولاي ورفاقي أبحرنا وجدفنا طيلة يوم واحد والرياح تساعدنا حتى غروب الشمس عندها هبت فجأة عاصفة وأعادتنا خلال ساعة أو ساعتين الى المصيصة ، وبعد هذا حيل بيننا وبين المضي الى قبرص ثلاث مرات ، ولهذا عدنا الى ميناء السويدية وهناك مرضت مرضا شديدا ، إنما بعد الاستيلاء على انطاكية قدمت اليكم ، وهانذا أقدم اليكم الآن شهادتي لتقبلوها .

وعد الاسقف هذه الحكاية مخترعة ، غير أن الكونت صندوقها بالحال ، ووضع بطرس بارثلميو في عهدة راهبه ريمون (مؤرخنا).

وفي الليلة الثانية تجلى مولانا يسوع المسيح الى كاهن اسمه ستيفن ، كان يبكي وهو ينتظر الموت لنفسه ولرفاقه ، وقد تملكه رعب شديد عندما أبلغه بعض الفارين من القتال عند القلعة بنزول الأتراك من الجبل و فرار الحجاج وانسحابهم بغير نظام ، وقبل دنو موته ، دخل ستيفن كنيسة مريم المباركة ، وذلك رغبة منه أن يشهد الرب عليه ، وهناك اعترف ونال الغفران لذنوبه ، وشرع يرتل التراتيل مع أصدقائه ، وظل طوال الليل يصلي بينما نام الآخرون ، ويردد: « يا مولاي من سيعيش في بيتك ، من سيجد الراحة على جبلك المقدس؟ » وفي هذه الساعة ظهر له رجل وسيم ليس كهينة البشر ، وتوجه بالسؤال الى ستيفن قائلاً: من دخل أنطاكية؟ فرد ستيفن: المسيحيون ، فسأله الرجل: بم يؤمن هؤلاء المسيحيون؟ وأجابه الكاهن: إنهم يؤمنون أن المسيح قد ولد من العذراء مريم ، وتحمل الآلام على الصليب ، ومات ودفن ، ثم قام من القبر في اليوم الثالث ، وصعد الى السماء ، فسأله الرجل: إذا كانوا مسيحيين ، لماذا يخافون من جموع الوثنيين؟ ثم تسابح يقول: ألا تعرفني ؟

فأجابه الكاهن ستيفن : أنا لا أعرفك ، غير أنك تبدو لي بالغ الجلالة ، و هنا قال له الرجل: « انتبه إلي وحدق بي جيداً » وعندما راقبه ستيفن وتمعن به عن كثب ، رأى فوق رأسه هالة تظهر تدريجياً على شكل صليب يخطف نوره الأبصار أكثر من نور الشمس ، وهنا أجاب الكاهن الرجل الذي كان يسأله : مولاي ، إننا نسمي الصور التي تشبهك في مظهرها صور يسوع المسيح ، ورد عليه السيد قائلاً : لقد نطقت بعين الصواب ، فأنا يسوع المسيح ، أليس مكتوباً أنني السيد القوي القادر في المعارك ، هل لي أن أسألك : من هو مقدمك ؟ وأجابه ستيفن : مولاي : ليس لدينا مقدم واحد ، ولكننا نثق بأدهم أكثر مما نثق بالآخرين :

وامرني المسيح بقوله : ابلغ الأسقف إن هؤلاء الناس قد
أبعدوني عنهم بسبب أعمالهم الشريرة ، ولهذا ينبغي أن يقودهم
– ابتعدوا عن الخطيئة فسأعود إليكم – وفيما بعد عندما سيذهبون
إلى القتال ليقولوا : لقد تجمع أعداؤنا وتباهاوا بقوتهم ، فدمر يارب
قوتهم ، واهزمهم حتى يعرفوك ، ياربنا حارب معنا وحدنا ، وزاد
هذه التعليمات : ستكون رحمتي معكم لو اتبعتم أوامري لمدة خمسة
أيام .

وفيما هو يتكلم اقتربت امرأة – هي مريم أم يسوع
المسيح – وقد أحاطت بوجهها هالة باهرة ، ونظرت نحو السيد
وسألته : ما الذي تقوله لهذا الرجل ؟ ورد المسيح على مريم : لقد
سألته عن الناس الذين هم في أنطاكية ، فقالت السيدة : أه
يامولاي ، إنهم مسيحيون حقا ، هم دوما في صلواتي إليك .

وعندما أيقظ الكاهن رفيقه النائم على مقربة منه ليشهد الرؤيا ،
اختفى المسيح ومريم من أمامه ، وفي الصباح التالي : صعد ستيفن
التل المواجه للبرج التركي ، حيث كان أمراؤنا ينتظرون ، باستثناء
غودفري ، الذي كان يحرس حصن الجبل الشمالي ، وأبلغهم
ستيفن في اجتماع عقده بفحوى رؤياه الموصوفة ، وأقسم بالصليب
على صحتها ، ثم أعرب أخيرا عن استعداده لاختراق النار ، أو
القاء نفسه من فوق برج إذا اقتضى الأمر ، لاقناع الذين يرتابون
بصدقه .

وازاء هذه الوقائع اعتقدت الحشود أن الأمراء كان يودهم الآن
الفرار إلى الميناء ، وأنه فقط قلة من نوي الايمان الراسخ ، لم تكن
تفكر بالفرار أثناء الليلة المنصرمة ، وأقسم الأمراء أنهم لن يفروا ،
ولن يتخلوا عن أنطاكية إلا بناء على قرار جماعي مشترك ، وهكذا
اطمأن الكثيرون ، وحتى ذلك الحين إن إغلاق أبواب أنطاكية بناء
على أوامر بوهيموند وأدهمر ، حالت دون الجلاء الكامل عن
المدينة ، وعلى الرغم من جميع الاحتياطات هرب وليم أوف غراند

مسنيل مع اخيه وعدد كبير من رجال الدين والعوام ، غير ان الكثيرين ممن هربوا من المدينة معرضين انفسهم لمخاطر شديدة ، واجهوا مخاطر اعظم هددتهم بالموت ، وهو ما صدر عن رجال كربوغا .

وانتشرت قصص التجليات والرؤى التي كانت تظهر لرفاقنا ، وراينا نحن إحدى العجائب في السماء ، فقد راينا نجما كبيرا معلقا وقف فوق انطاكية لبرهة من الوقت ، ثم مالبت ان تفتت إلى ثلاثة اجزاء وسقط داخل المعسكر التركي ، وتشجع الحجاج بعض الشيء وترقبوا بلهفة حلول اليوم الخامس الذي أعلن عنه الكاهن ، وفي ذلك اليوم حمل اثنا عشر رجلا ومعهم بطرس بارتلميو الأدوات اللازمة ، وبدأوا يحفرون في كنيسة بطرس المبارك ، بعد ان ابعادوا جميع المسيحيين الآخرين ، وكان من بين الاثني عشر أسقف اورانج وريمون دي جيل كاتب هذه السطور ، وريموند صنجيل ، وبونز اوف بالازون وفارالد اوف ثوارز.

وظللنا نحفر حتى المساء ، ويذس بعضنا من إخراج الحربة من باطن الأرض ، وفي تلك الأثناء ، بعدما ذهب الكونت إلى حراسة القلعة ، اقنعنا عمالا جددنا بأن يحلوا محل الحفارين الذين تعبوا ، وحفروا بكل جد وشدة ، غير ان بطرس بارتلميو الممتلىء شبابيا ، تجرد عندما رأى الاجهاد وقد أخذ من رجالنا كل مأخذ ، ووضع جانبا ثيابه الخارجية ، ونزل إلى الحفرة حافي القدمين وليس عليه إلا قميص ، ثم توسل إلينا ان نصلي للرب ليعيد حيرته إلى الحجاج ، ليجلب لشعبه القوة والنصر ، وأخيرا ، أظهر الرب لنا برحمته المباركة حيرته ، وقبلت أنا ريمون مؤلف هذا الكتاب سن الحربة عندما برز من الأرض ، ومن غير الممكن لي وصف السعادة والابتهاج اللذان غمرا انطاكية ، لكن يمكن لي ان أؤكد ان الحربة قد اكتشفت في اليوم الثامن عشر قبل اليوم الأول من تموز .

ووقف في الليلة التالية اندروز المبارك امام الشباب الذي كشف عز

الحربة وقال له : انتبه قد أعطى الرب الحربة للكونت ، وحقا اقول :
إنه قد حفظها له وحده عبر العصور ، كما وجعله قائدا للحجاج
شريطة أن يكرس نفسه للرب ، وعندما طلب بطرس بارتلمييو الرحمة
للمسيحيين أجابه أندروز المبارك : حقا إن الرب سيكون رحيفا
بشمعه .

ومرة أخرى سأل بطرس زائره الليلي عن اسم رفيقه : من كان
الشخص الذي رأيته يصاحبك بشكل متكرر ؟ فرد عليه أندروز
المبارك بقوله : اقترب وقبل قدمه ، فاقترب البروفاذس ، فرأى مابدا
له جرح حديث ودم في قدمه ، فتراجع بسبب ذلك المنظر الدموي ،
وهنا أمره أندروز المبارك قائلا : انظر إلى الرب الذي سمر على
الصليب من أجلنا ، وتحمل منذ ذلك الوقت هذا الجرح ، فضلا عن
ذلك إن الرب يأمرك بالاحتفال بتاريخ اكتشاف حربته ، في ثامن أيام
العيد من الأسبوع المقبل ، لأن استخراج الحربة وقت صلاة العتمة
يمنع الاحتفال في ذلك اليوم ، وبعد هذا إنك ستحتفل كل عام بيوم
اكتشاف الحربة ، ثم أبلغ المسيحيين أن يكبحوا جماح أنفسهم
حسبما تعلمهم رسالة أخي بطرس (كانت تلك الرسالة تعلم :
تواضعوا تحت يد الرب القوية) كما أن الكهنة سيرتلون كل يوم
بالترتيلة التالية :

وعندما يصلون إلى قولهم :

عليهم أن يجثوا على ركبهم وينحنون مختتمين الترتيلة .

وفيما بعد عندما استفسرت أنا وأسقف أورانج من بارتلمييو عما
إذا كان يعرف خدمة القداس الكنائس ، فإنه إحساسا منه بأن
الاجابة بالايجاب لن تقابل بالتصديق اجاب : أنا لا اعرف ، ومع انه

- ٢٦٢٩ -

كان يعرف بعض الطقوس كان حينئذ مرتبكا جدا إلى درجة أنه لم يتذكر القداس الكنائسي أو يذكر بالمرّة ماتعلمه منه باستثناء :

ونسي كل ما سوى ذلك ، ولم يتذكر فيما بعد إلا عدة كلمات بصعوبة .

الفصل الثامن

هزيمة كربوغا

في تلك الأيام عز الطعام وأصبح نادرا جدا ، حتى بيع رأس الحصان بدون لسان بإثنين أو ثلاثة صولدي ، وأمعاء الماعز بخمسة صولدي ، والدجاجة بثمانية صولدي أو تسعة ، وما الذي يمكن أن أقوله عن الخبز عندما يأكل المرء ما قيمته خمسة صولدي ويستمر جائعا ، أما الأغنياء الذين يملكون الذهب والفضة والملابس ، فلم يكن غريبا عليهم ، أو حتى مرهقا لهم دفع التكاليف الباهظة ، وهكذا ارتفعت الأسعار وزادت لأن ضمائر الفرسان الشريرة كانت تفتقر إلى الشجاعة المسيحية ، لقد كانوا يجمعون التين الفج ويطهونه ثم يبيعونه ويسلقون جلود الماشية والخيول والنفايات الصالحة للأكل ويبيعونها بأسعار مرتفعة جدا ، حتى أن أي إنسان كان يمكنه أن يأكل أي كمية تكلفه صولدين ، بيد أن أغلب الفرسان ، الذين يرجون رحمة الرب ، رفضوا أن يذبحوا خيولهم ، وتحملوا بدمانهم ،

وفي الوقت الذي كانت فيه هذه البلايا وغيرها مما لا يستطاع ذكره لما فيه من بؤس ، تقض مضاجع المسيحيين ، لجأ بعض رجالنا إلى الخيانة ، فأبلغوا الأتراك بحالة البؤس التي تعيش فيها انطاكية ، فزادوا بذلك من همومنا وضاعفوها ، وشجعت هذه الأخبار الأتراك ودفعتهم إلى القيام بأعمال جريئة جعلتنا عرضة لتهديداتهم ، ووقع أحدها في ظهيرة أحد الأيام ، عندما اعتلى ثلاثون منهم أحد أبراجنا ، وأوجدوا لبعض الوقت حالة شديدة من الذعر ، غير أن قواتنا التي تعرضت للمخاطر ، قاتلت بتأييد من الرب ، فقتل رجالنا بعض الأعداء ، ودفعوا بالآخرين بعيدا عن الشرافات ، ووعد في ذلك

الوقت جميع حملة الصليب باتباع اوامر بوهيموند لمدة خمسة عشر يوما بعد القتال ، بحيث يمكنه ان يتدبر امر حماية انطاكية ، ويضع خطط القتال ، وكان سبب هذا القرار هو التهديد التركي ، ومرض الكونت ريموند وادهم ، وفرار ستيفن أوف بلوا ، واذكركم : إن ستيفن قد فر على الرغم من اختياره قائدا مسيحيا قبل سقوط انطاكية - نتيجة للأقاويل بقرب وقوع المعركة ، وكما حكينا ، جاءت معونة السماء الى مسيحيينا المرعوبين والمثقلين بالهموم والأحزان ، عن طريق بطرس بارتلميو ، الذي اكتشف الحربة ، وكان يسدي إلينا بالنصح حول الذي علينا فعله قبل المعركة وفي اثنائها ، فلقد أخبرنا ان المبارك أندروز قد قال : إن الجميع قد حاق بهم غضب الرب كثيرا ، فوقع عليهم العذاب ، اما أنت فقد صليت إلى الرب واستمع الرب إليك ، والآن فليهجر كل منهم الأثام وليتوجه إلى الرب ، وليقدم خمس صدقات ، بسبب جروح الرب الخمسة ، واذا عجز عن ذلك فليردد ابــــــــــــــــــــانا

Pater Noster خمس مرات ، وبعد اكتمال تنفيذ هذه الاوامر ، ابدأوا المعركة باسم الرب ، ولتبدأ نهارا أو ليلا ، وفقا لخطط القتال التي وضعها الامراء ، لان يد الرب ستكون معكم ، ومع هذا اذا ما ارتاب واحد في نتيجة المعركة ، فلتفتحوا الأبواب و تدعوها تجري إلى الأتراك حيث سيحميهم «الله» ، و أكثر من هذا ، ليكن أي متخانل لا يقدم على القتال مع يهوذا خائن يسوع المسيح ، الذي تخلى عن الرسل وباع المسيح لليهود ، و بالصدق أجعلهم يتقدمون الى المعركة ، بايمان بطرس المبارك ، متمسكين بوعد المسيح له عند قيامه وظهوره في اليوم الثالث ، دعهم يتقدمون الى القتال ، لأن هذه الأرض ليست أرضا وثنية ، بل تدخل في اختصاص القديس بطرس ، وليكن شعار التجمع بينكم «ساعدنا أيها الرب» ولسوف يساعدكم الرب فعلا ، و سيقاقل معكم كل رفاق رحلتكم الذين ماتوا بقوة الرب ،تحت قيادته ضد تسعة أعشار الأعداء ، بينما تقاثلون أنتم العشر الباقي ، بادروا الى القتال حتى لا يقود الرب عددا مساويا من الأتراك ضدكم ،

ويحاصر انطاكية حتى ياكل بعضكم بعضا ، كونوا على اطمئنان ان الايام التي تنبأ بها المسيح لمريم ولرسله قد جاءت ، انها الايام التي سيطيح بها بمملكة الوثنيين وسيسحقها تحت قدميه ، ويرفع فيها الامارة المسيحية ، انما عليكم الاتنصرفوا الى خيام العدو طلبا للذهب والفضة .

ثم تجلت يد القدرة الربانية ، فالذي امرنا بالاوامر السالفة اعلنها لنا عن طريق القديس اندروز ، مما شجع القلوب وشحنها بالايمان والامال ، الى حد ان كل مسيحي شعر انه قد احرز نصرا ، فعادت الى الجميع حماستهم الى القتال عندما راحوا يشجعون بعضهم بعضا ، واصبحت الجموع ، التي كان الخوف والفقر قد اصابها بالشلل منذ عدة ايام فقط ، تسأل عن اسباب تأخير المعركة وتتهجم على الامراء ، وبناء عليه حدد الزعماء تاريخ المعركة ، ثم ارسلوا بطرس الناسك الى كربوفا حاكم الموصل ، ومعه اوامر بان يتخلى عن حصار انطاكية ، لانها كانت تدخل في نطاق مسؤولية القديس بطرس والمسيحيين ، غير ان كربوفا المتغطرس اجاب انه سواء اكان على حق ام على باطل ، يرغب في ان يصبح سيديا على المدينة وعلى المسيحيين الفرنجة ، وارغم بطرس الناسك على الركوع امامه.

وفي تلك الاثناء برزت مسألة اختيار بعض القوات لحراسة انطاكية من هجمات القوات التي في القلعة ، في حين تخرج قوات اخرى الى ميدان القتال ، ولهذا تمت اقامة سور حجري وتحصينات فوق تل يواجه العدو ، وقويت هذه التحصينات بالصخور وجعلوا عليها حامية بها ريموند كونت طولوز ، وكان مصابا بمرض خطير ، وترك معه مائتين من الرجال ، وجاء اليوم المحدد للمعركة ، وتناول الجميع القربان الرباني في ذلك الصباح ، وخضعوا لارادة الرب ، وحتى للموت اذا اراد ذلك ، ولشرف الكنيسة الرومانية ولجنس الفرنجة .

وتم تنظيم المعركة على اساس رتلين مزدوجين من البروفانسيين من قوات ريموند وادهمر مع رجالة. في المقدمة ، يهاجمون او يتوقفون وفقا لاوامر قائدهم ، ثم يليهم في الساقاة الفرسان ، وسارت قوات بوهيموند بهذا الاسلوب القتالي نفسه ، وكذلك قوات تانكرد وكونت نورماندي ، والفرنجة والدوق والبرغنديين ، واندفع المنادون في انطاكية يحثون كل رجل على القتال مع قائده ، وكان نظام الزحف حسبما يلي : هيو العظيم ، كونت فلاندرز ، وكونت نورماندي اولا ، ثم الدوق والاسقف ، واخيرا بوهيموند ، وبهذه الطريقة وقفوا في صفوفهم دون المدينة وامام باب الجسر .

اه كم هي مباركة هذه الامة التي يكون سيدها هو الرب ، والشعب الذي اختاره لميراثه ، ولكم تغير مظهر هذا الجيش ، من حالة الكسل والتراخي الى النشاط والمعركة ، فقبل ايام عدة كان القادة والنبلاء يسيرون في شوارع انطاكية يسألون الرب العون ، وكان العامة يسيرون في المدينة حفاة ، وهم يصرخون ويضربون صدورهم ويلطمونها ، وكان قد بلغ من بؤس المسيحيين وشقائهم ان الاب وابنه والاخ واخاه ، لم يكونوا يتبادلون التحية والنظرات ، وهم يمرون في الشوارع ، ومع التبدل المفاجيء في الروح ، صار المرء يرى المسيحيين يخرجون كخيول نشطة ، ويقعقعون بأسلحتهم ، ويلوحون برماحهم ، ويحتفلون بكل صخب بالكلام والسلوك ، ولكن لماذا نؤخر اكمال حكاية هذه القصة ؟ يكفي القول : ان الرغبة في القتال باتت الان امرا مفروغا منه ، وكانت خطط القادة تنفذ.

وفي الوقت نفسه ، وبينما كان كربوفا يلعب الشطرنج في خيمته تواتر وصول الاخبار اليه بأن الفرنجة كانوا خارجين الى القتال ، فاضطربت نفسه لهذا التحرك غير المتوقع ، فاستدعى مجير الدين وهو لاجيء تركي من انطاكية ، وشجاع مقدم معروف ، وسأله : مالذي يحدث ، الم تخبرني ان المسيحيين الاقل عددا منا لن يقاتلوا ابدا ، لان عدد الفرنجة كان ضئيلا ؟! ورد مجير الدين على سؤاله هذا قائلا : لا ياسيدي اني لم ابلغك بشيء من هذا القبيل ، لكن تعال

معي فلاسوف اراقبهم ، ومن ثم انصح لك وابين كيف يمكنك ان تتغلب عليهم ببسر وسهولة .

وعندما تقدم الصف الثالث من حجاجنا ، استطلع مجير الدين صفوفنا ثم ابلغ كربوغا : ان المسيحيين سيموتون قبل ان يفروا ، وسأله كربوغا بدوره : الا يمكن دفع بعض المسيحيين الى الوراة قليلا ؟ ورد مجير الدين : لو اندفع العالم كله ضدهم ما ترحزحوا قيد انملة .

وعلى الرغم من خوف كربوغا فانه صف جيشه الكبير ووضعه في وضع قتالي ، وانن لحملة الصليب بالخروج من انطاكية دونما مضايقات ، مع انه كان يستطيع سد الطريق بوجههم ، ونقلت قواتنا على الفور خطوطها القتالية نحو الجبال التي كانت على بعد ميلين كاملين من الجسر ، وذلك خشية منها ان تتعرض لحركة التفاف من الخلف ، ثم تقدمنا في موكب يشبه تماما رجال الدين ، ولاغرو انه كان موكب حقا : سار الكهنة والكثير من الرهبان وهم يرتدون القمصان البيضاء امام صفوف فرساننا ، وهم يرتلون وينشدون العون من الرب مع حماية القديسين ، وعلى الرغم من ذلك هاجمنا الاتراك واطلقوا علينا نوابهم ، واقترح كربوغا الذي لم يعد بإمكانه تجاهل الزحف المسيحي اقترح على قانتنا ان يقاتل خمسة او عشرة من الاتراك العدد نفسه من الفرنجة ، مقابل ان يغادر الجيش الذي انهزم ممثلوه من الفرسان ميدان المعركة بسلام ، واجاب رجالنا : لقد رفضت ذلك عندما اردناه ، والان بما اننا على استعداد للقتال فليقاتل كل انسان في سبيل حوقه .

وكما ذكرنا من قبل ، كنا مصطفين على الأسهل عندما هاجمت كتبية من الاتراك ، كانت قد جاءت من خلفنا ، فرقة من الرجالة ، انعطفت وقابلت الهجوم بكل شجاعة ، وعندما عجزت قوات الاعداء عن القضاء على الرجالة اشعلوا نارا حولهم حتى تحصد النيران من

لايخشى السيف ، ولأن الاعشاب كانت جافة تماما فقد جرى انسحاب اجباري .

ووقف مع جيشنا خارج انطاكية الكهنة حفاة يرتدون الملابس الكهنوتية ، وقفوا فوق الاسوار يبتهلون الى الرب ان يحمي شعبه وان ينصر الفرنجة نصرا يأتي دليلا على العهد الذي عمده بدمه ، ولدى زحفنا من الجسر الى الجبل قاتلنا قتالا شديدا لاحاطة الاتراك بنا ، وفي تلك الاثناء ، اندفع الاعداء مهاجمين الذين كانوا منا في صفوف ادهم ، وعلى الرغم من تفوقهم العددي فإنهم عجزوا عن جرح اي واحد من رجالنا لانهم لم يتمكنوا من تسديد نشابهم نحونا ، ولاشك ان مرد ذلك الى الحماية المقدسة لنا ، فقد كنت شاهداً على هذه الحوادث ، كما كنت حاملا للحربة المقدسة ، واكثر من ذلك لئن كانت الاشاعة قد ترددت ان هرقل حامل راية الاسقف قد اصيب اثناء القتال ، ليكن معروفا انه اعطى رايته الى شخص اخر ، ووقف بعيدا عن صفوفنا .

ولما اصبح جميع رجالنا خارج انطاكية ، شكل قانتنا ، كما سلف بنا الذكر ، ثمانية صفوف ، لكن مالبت ان ظهرت بين صفوفنا خمسة اخرى ، فصار عدد الصفوف بذلك ثلاثة عشر صفا ، ثم انني لن افوت الحديث على الحدث التالي ، ولانه جدير بالتنويه لن امر به مرور الكرام : لقد انزل الرب على المسيحيين الزاحفين نحو القتال مطرا خفيفا ، فابتهجوا لسقوطه ، وكانت قطرات هذا المطر تجلب لمن تمسهم قوة وخفة ورشاقة حتى انهم صاروا يحتقرون العدو ، ولقد هاجموا كما لو كانوا قد دربوا على الطريقة الملكية وتربوا ، وكان لهذا الرزاز من المطر تأثيرا على خيولنا لا يقل اعجازا ، ودليل ذلك انني اسأل : اي حصان انهار قبل القتال ، على الرغم من انه لم يكن قد اكل غير لحاء الشجر واوراقه لمدة ثمانية ايام؟! ولأن الرب قد اضاف جنودا الى جيشنا فقد تفوقنا عدديا على الاتراك ، مع اننا كنا قبل ذلك نبدو اقل عددا .

وعند اكتمال تقدمنا وانتظام تشكيلنا القتالي ، هرب العدو دون ان يعطينا الفرصة للقتال ، فكان ان طاربتهم خيولنا حتى غروب الشمس ، وجاء صنيع الرب مع الرجال والخيول مدهشا ، حيث لم يعق الجوع والجشع الرجال ، واذا بالخيول التي لم تأكل منذ فترة ، والتي قادها اصحابها بعيدا عن العلف القليل الى ميدان المعركة ، اذا بها تطارد اسرع الخيول التركية ، وصنع لنا الرب حدثا سعيدا اخر ، وهو ان المدافعين عن القلعة عندما شاهدوا فرار رجال كربوغا تولاهم اليأس فاستسلموا ، واستسلم بعضهم بعد ضمان حياتهم ، بينما لاذ اخرون بالفرار على وجه السرعة ، وعلى الرغم من شدة هذه المعركة وفظاعتها ، فان قلة من الفرسان الاتراك قد هلكت ، هذا من جانب ، ومن جانب اخر لم ينج بحياته احد من الرجالة ، وفضلا عن ذلك كانت الغنائم تتضمن كل خيام الاتراك مع الكثير من الذهب والفضة ، وكميات لا تقدر من الحبوب ، واعدادا لاتحصى من الماشية ، والجمال ، فذكرتنا بفرار السريان في السامرة ، عندما كان صاع الدقيق والشعير بشيكل وقد وقعت هذه الأحداث في ليلة عيد القديسين بطرس وبولص (٢٦ رجب ٤٩١ هـ / ٢٨ تموز ١٠٩٨ م). وكان موثما ، لأنه من خلال هذين الشفيعين المقدسين جلب الرب يسوع المسيح هذا النصر الى كنيسة الحجاج الفرنجة ، حقا كان ربنا الرحيم هو الذي يعيش مع عبيده ويسكن معهم الى ابد الأبد.

الفصل التاسع

وفاة أدهمر والابلاغ عن رؤى

استولى في أعقاب الانتصار : بوهيموند ، والكونت والدوق وكونت فلاندرز على القلعة من جديد ، غير أن بوهيموند أضمر شرا دفعه إلى اقتراف الاثم ، فقد استولى على الأبراج انشاهقة ، وطرد بالقوة أتباع غوفري وكونت فلاندرز وكونت صنجيل من القلعة مسوغا عمله بأنه كان قد تعهد (للأرمني) رجل الأتراك الذي سلمهم أنطاكية أنه هو فقط الذي سيمتلکها ، وتشجع بوهيموند بهذا العمل الذي مر بدون عقاب ، فجاء يطالب بالقلعة وبأبواب أنطاكية التي يحميها ريموند وأدهمر وغوفري منذ أيام حصار كربوغا ، واستسلم الجميع باستثناء الكونت ، فعلى الرغم من حالة المرض والضعف التي كان يعاني منها ، لم يرغب ريموند بالتنازل عن باب الجسر ، ولم تثنه عن عزمه الصلوات والوعود والتهديدات .

وقلق قانتنا بسبب الصراع الداخلي الذي قوض أسس العلاقات الودية بحيث أن قلة فقط هي التي كانت تتجنب النزاعات مع الرفاق أو الخدم على السرقة أو العنف ، وفي عدم وجود قاض يمكنه أن يناقش القضايا ، أصبح كل شخص قانونا في حد ذاته ، وفي ظل هذه الظروف لم يكن الكونت المريض ولا الأسقف يوفران حماية كبيرة لاتباعهما ، لكن لم نشغل أنفسنا بمثل هذه الترهات الصغيرة، المهم أن الحجاج الذين باتوا الآن يرفلون في الثراء والخمول ، أجلوا الرحلة - خلافا لأوامر الرب - حتى أول تشرين الثاني ، ونحن نعتقد أن الفرنجة لو تقدموا مامن مدينة بين أنطاكية والقدس كانت ستلقي عليهم حجرا واحدا ، فقد كانت مدن المسلمين تعيش وقتئذ في رعب وضعف شديدين بعد هزيمة كربوغا .

وانتقل في هذه الاثناء الى الرب بسلام اللورد أدهم ، وذلك في الايام الأولى من شهر آب ، وأدهم هو أسقف لى بوي المحبوب من الرب والناس أجمعين ، والذي رآه الجميع منزها عن الخطأ ، وحزن عليه المسيحيون جميعا، حزنا عظيما عندما مات ، ومع أننا كنا شهود عيان له ، لم نستطع وصف ربود الأفعال عندما شرعنا في تسجيل عظمة الأحداث ، ولقد أثبتت حادثة تشقت القيادة في أعقاب موت أدهم ، و عودة بوهيموند الى كليزيا ، وسفر غوبفري إلى الرها ، كم كان أدهم مفيدا لجند المسيح ولقائدهم .

وفي الليلة التالية لدفن الأسقف في كنيسة بطرس المبارك في أنطاكية ، تجلى الرب يسوع وأندروز المبارك وأدهم في كنيسة ريموند لبطرس بارثلميو ، وهو الرجل الذي كان قد حدد موقع الحربة في أنطاكية ، ثم قال أدهم لبطرس : الشكر للرب ولبوهيموند ولكل أخوتي الذين خلصوني من الجحيم ، فبعد اكتشاف الحربة ، أمعنت في اقتراف الأثام وألقي بي لذلك في الجحيم ، وجلدت بقسوة ، وكما يمكنك أن ترى لقد احترق رأسي ووجهي وبقيت روحي في الجحيم منذ الساعة التي غادرت فيها جسدي ، حتى أعيد جسدي التمس إلى التراب ، وإن الثوب الذي تراه الآن علي هو ثوب أعاده الرب إلي وأنا في لهيب جهنم لأنني أثناء ترسيمي أسقفا كنت قد أعطيته إلى أحد الفقراء ، شكرا، فعلى الرغم من أن جهنم كانت تغلي ، وكلاب جهنم تزمجر في وجهي ، إنها لم تصب مني أي شيء تحت الثوب ، ولم ينفعني من كل الأشياء التي حملتها من وطني شيء مثلما أفاننتني شمعة وهبها أصدقائي تقدمت لي ، مع الدنانير الثلاثة التي تصدقت بها للحربة ، فقد أحييتني هذه الصدقات عندما خرجت من الجحيم ، وقل لبولاي بوهيموند قد قال إنه سيحمل جسدي إلى بيت المقدس ، ومن أجل خاطره إنه لن ينقل جثمانى من مقره لأن بعض دم الرب الذي أصبحت به الآن مرتبطا مازال هاهنا .

غير أنه إذا كان يشك في أقوالى فليفتح قبري ، وعندها سيرى

رأسي ووجهي المحترقين ، ولقد عهدت بـأتباعي واصلت مولاي الكونت ، فليعاملهم ريموند بعطف حتى يكون الرب به رحيمًا ويفي بوعوده ، كما ولا ينبغي لأخوتي أن يحزنوا لموتي لأنني سأكون أكثر نفعًا لهم وأنا ميت مما كنته حيا ، وإذا رغبوا في المحافظة على قوانين الرب ، فسأعيش أنا وجميع أخوتي الراحلين معي ، ولسوف أظهر وأقدم نصحا أفضل مما كنت أقدم وأنا بين الأحياء ، فأعبروا يا أخوتي اهتمامكم بالألام الجحيم الثقيلة المخيفة ، واعبدوا الرب ، مخلص الإنسان من هذه الآلام وسواها ، فالسعيد حقا من ينجو من عقوبات الجحيم ، وسيستطيع المخلص منح عفو لمن حافظوا على وصاياهم ، وعليكم الحفاظ على هذه النقاط المتساقطة من هذه الشمعة والمتبقية عند الفجر ، بما أنني قدمت فلينتخب الكونت ورجاله الأخيار أسقفا بديلا لي ذلك أنه لا يلبق أن يبقى كرسي أسقفية تابع لمريم المباركة شاغرا بدون أسقف ، واعطوا واحدا من أريتي إلى كنيسة القديس أندروز .

ثم سُم أندروز المبارك تحياته واحتراماته واقترب وقال موصيا :
« اهتموا بكلمات الرب التي أنطق بها ، وتذكر ياريموند الهدية التي عهد بها الرب إليك ، وليكن كل ماتفعله باسمه حتى يرشدك الرب في كلامك وافعالك ، ويقبل صلواتك ، كانت نيقية اول مدينة منحها الرب إليك ، هو الذي حولها إليك ، لقد منحك الرب مدينته ، وانتزعها من أعدائك ، حتى تتنكر له بعد ذلك في هذا المكان ؟ أم لأن أعمال الرب لم تكن معروفة هناك ، وإذا طلب أحد معونة الرب كان يعاقب ؟! وعلى الرغم من ذلك إن الرب بكرمه وإحسانه لا يريد أن يتخلى عنكم ، وسيمنحكم ماتطلبون ، بل وأكثر مما تجراتم على طلبه ، فهو قد سلمكم الحربة التي اخترقت جسده الذي سال منه دم الفداء لنا ، وتذكروا أن الرب لم يمنحكم هذه المدينة لتدنسوها كما فعلتم في الأخرى ، ويمكنكم بكل تأكيد أن تتيقنوا أن الرب لم يمنحكم إياها لمزايا فيكم .

إن الرب يأمر يا ريموند أن تعرف من الذي يطمح أكثر من سواه

في حكم أنطاكية ، وتستفسر عن نور الرب في حكمه ، لذلك إذا وجدت أنت وإخوانك ، وأنتم الآن الحراس الأوصياء على أنطاكية ، من يمكنه القيام بإخلاء على عدالة الرب ، فسلموا له المدينة وأعطوه إياها ، لكن إذا كان يخطط للاحتفاظ بأنطاكية بالقوة ، مزديا بذلك العدالة وحكمها ، فاطلب أنت وإخوانك المشورة من الرب ، وسوف يقدمها لك ، ولن يخذلك الاتقياء والذين يعبدون الرب حقا ، أما غير الاتقياء فيمكنهم أن يعودوا إلى من هو عدو للعدالة ، وسترون كيف سيعذبهم الرب ، ستنزل بهم حقا اللعنة نفسها التي أنزلها الرب وأمه بابليس الذي هوى ، فاذا كنتم مذققين ، اطلبوا النصيح في الصلاة

وسيقدمه الرب لكم وإذا كنتم متفقيين ، فاعقدوا مجمعا من أجل اختيار بطريك لنا موسكم ، وإياكم أن تمنحوا الغفران للأسرى الراغبين بالتمسك بوصاياكم ، ولاتبقوا على الذين اتبعوا القرآن ويتولون عبادة « الله » الذي يعبده الأتراك ، انظروا إليهم كأتراك ، وابعثوا باثنين أو ثلاثة إلى السجن وسيرشدونكم إلى الآخرين ، وبعد الانتهاء من هذه المهمة اطلبوا مشورة الرب بشأن رحلة الحج ، وسيحضكم الرب النصيح ، إنما إذا لم تنفذوا هذا الأمر ، لن تصلوا إلى القدس ولو بعد عشر سنوات مع أنها لا تبعد عنكم إلا عشرة أيام ، وسأقود الكفار إلى بلادهم من جديد ، وسينتصر مائة منهم عليكم ، أضف إلى هذا عليكم ياعبيد الرب ، أن تستعطفوا الرب كما فعل الرسل ، فكما استجاب لصلواتهم سيستجيب إلى صلواتكم .

أما أنتما ياريموند وبوهيموند فاذهبا إلى كنيسة أندروز المبارك فسيعطيكما أفضل نصيحة من الرب ، واتبعا ما يضعه الرب في قلوبكما ، وبعد هذه الرؤيا المباركة لأندروز المبارك تنذلا أمامه ، ليس أنتما فقط ، بل إجعل جميع إخوانكما يفعلون ذلك أيضا ، واجعلا بكل وسيلة السلام وحب الرب يسود بينكما ياريموند وبوهيموند ، لأنكما إذا اتفقتما ، لن تستطع قوة أن تحطمكما ، وجدير بكما أن تعلننا عن العدالة التي من المتوجب أن تقيمانها : إجعل جميع الرجال الموجودين يعلنون على الملا بوساطة أسقف كل

منهم مبلغ ثرواتهم وقيمتها ، وأن يساعدوا الفقراء كل حسب مقدرته ، وحسب الحاجة إلى هذه المساعدة ، وتصرفوا وفقا لاتفاق عام ، وإذا لم يريدوا مراعاة هذه القاعدة وغيرها من القواعد العادلة ، اكبحوا جماحهم ، وإذا مارغب أي واحد منهم في امتلاك أية مدينة « منحها الرب من أجل المسيحيين فليسلك المسلك الذي يتفق مع الوصايا المذكورة ، وإذا لم يفعل فليعاقبه الكونت مع أبناء الرب » .

وفي البداية لاقت وصايا وتنبيهات القديس أندروز التصديق ، بيد أنه سرعان ماغدا نصيبها التجاهل ، فقد قال بعض الحجاج : فلترد انطاكية إلى الكسيوس ، غير أن آخرين اعترضوا أثناء حصار عرقة فيما بعد ، بينما كان بطرس بارتلميو يرقد على فراش الموت ، استدعى الكونت وأوصاه بقوله : عند وصولك إلى القدس وجه أوامرك إلى الجيش للصلاة إلى الرب حتى يطيل عمرك ، ولسوف يضاعف الرب حياتك ، ولدى عودتك ضع الحربة على بعد خمسة فراسخ من كنيسة القديس تروفيموس ، ومر ببناء كنيسة هناك ، وأوقف - بيمين - مالا كثيرا عليها .

و اياك أن تسمح باقتراف أي إثم في هذا المكان ، و أطلق على هذا المكان اسم جبل البهجة ، ولعل هذه الأشياء تنفذ في بروفاندس لأن بطرس المبارك وعد حواريه تروفيموس أن يسلمه الحربة المقدسة

واهمت مصالح المعدمين « الطافور » بسبب الصراع والشقاق ، ولم يحدث شيء بخصوص الوصية التي تلقاها القادة من القديس أندروز ، وفي تلك الاثناء حاصر اترك حلب قلعة تسمى عزاز ، وقلق الاتراك المحاصرون داخلها واشتد عليهم الامر فطلبوا من غودفري الذي كان في منطقة قريبة منهم أن يسلموه قلعتهم ، لانهم يفضلون سيدا فرنجيا ، وبناء عليه استدعى الدوق لدى عودته الى انطاكية ريموند الذي كان قد تعافى من مرضه ، واستدعى هو معه جميع

فرسانه ورجالته الذين كان الكونت قد قادهم الى اراضي المسلمين لنهب الارياف لصالح المعدمين ، كما والح في طلبه من ريموند الاسراع من اجل الرب ، ومن اجل شرف جيش الفرنجة في التوجه الى مساعدة الاتراك المرتدين ، الذين كانوا انذاك يستصرخون الرب ، ووضح ايضا ان الاتراك المحاصرين رسموا علامة الصليب في مواجهة الاف القوات المحاصرة لهم ، وسار الكونت نتيجة لهذه المطالب ومعه غودفري ، وتخلى الاتراك عن حصار عزازل لدى سماعهم بهذه الانباء ، وبناء عليه عند وصول جيشنا اليها ، اخذ الدوق رهائن من القلعة لضمان ولاء عزازل له في المستقبل ، وعاد ريموند الى انطاكية بعد ما تكبد جيشه نفقات كبيرة ، وهنا استدعى فرسانه لكي يقود الناس المعدمين الى اراضي المسلمين بعدما تدنت معنوياتهم بسبب الجوع والتعب .

وفي الوقت نفسه تجلى القديس اندروز لبطرس بارتلميو في خيمة في قلعة الروج التي كان يحتلها اسقف ابيت وريمون دي جيل كاهن الكونت ، وكان اسم الاسقف سيمون ، وعندما سمع سيمون الحديث بين القديس اندروز وبطرس ستر راسه ، وكما قال فيما بعد : انه سمع كثيرا مما دار ، ولكنه لم يتذكر الا : سيدي ، انني اقول

ومع ذلك ، اضاف اسقف ابيت : انني لست على يقين فيما اذا كان مارايته حلما ام لا ، لكنني رايت رجلا متقدما بالسن يرتدي عباءة بيضاء ويمسك بين يديه حربة الرب المقدسة ، وقد سألني : هل تؤمن بان هذه الحربة هي حربة يسوع المسيح ؟ فاجبته بقولي : نعم انني اومن بذلك ياسيدي ، ولدى تكراره السؤال مرة ثانية وثالثة اجبت قائلا : حقا انني مؤمن بان هذه هي الحربة التي اسالت الدم من جنب يسوع المسيح ، وهو الدم الذي افتدى به الجميع .

ثم حركني - ريمون دي جيل - اسقف ابيت ، وكنت نائما على

مقربة منه ، وعندما افقت لاحظت الضوء غير العادي ، وشعرت كما لو ان النعمة الالهية قد حلت في روحي ، واستفسرت من اصدقائي الحضور عما اذا كانوا يشعرون كما انهم بين مجموعة تحركها عاطفة هائلة ، فاجابوني جميعا : لا ، حقا ، وبينما كنت اردت ماسبق ، اجاب بطرس متلقي الوحي السماوي : انك رايت فعلا نورا مبهجا ، لان الرب صاحب النعم جميعا ، كان يقف في هذه البقعة لمدة طويلة .

وعندما طلبنا منه - بطرس - ان يسرد علينا كلمات زواره السماويين نكر لنا وللكونت مايلي : جاء الى هنا في هذه الليلة الرب مع اندروز المبارك بشكلهما المعتاد ، وبصحبتهما رفيق صغير ، له لحية طويلة ، وكان يرتدي ثوبا من الكتان ، ثم ان اندروز المبارك زجرني بقسوة فقد اسخطه انني تخليت عن رفات جسده الموجود في الكنيسة في انطاكية ، وقد تهددني بعنف واستطرد يقول : بعدما القاني الكفار من فوق الجبال بدون خشية او احترام ، انكسر لي اصبعان ، وبعد موتي حفظهما هذا الرجل ، وبعد ذلك نقلهما الى انطاكية ، غير انك لم تهتم كثيرا بأثاري بعدما عثرت عليها ، فسمحت بسرقة احدهما ، ورميت بالآخر بشكل مشين ، ثم اراني يده التي كان ينقصها اصبعان .

ثم استطرد بطرس يقول : ايها الكونت ، لقد انتقدك القديس اندروز بكل شدة ، لانك لاتخشي من اقرار الاثام الخطيرة والشريرة ، وذلك على الرغم من انك تلقيت الهدية التي لاتوصف والتي حفظها لك الرب وحدك ، وهذا هو السبب في ان الرب قد اعطاك العلامة التالية التي هي على وجه التحديد : قدمت منذ خمسة ايام في عيد القديس فيديس (٦ - تشرين اول) مقدمة كانت عبارة عن شمعة كبيرة تستغرق ثلاثة ايام وثلاث ليال لتحترق ، ولكنها سرعان ماذابت وهوت الى الارض ، وحدث العكس هذه الليلة فقد قدمت شمعة صغيرة لاتكاد تكفي للاحتراق حتى قبيل صياح الديكة تماما ،

وهي الان تشع بضوئها ولم ينب ثلثها حتى الساعة مع ان ضوء النهار قد اشرق الان .

وبناء عليه يطلب منك الرب الاشياء التالية : عليك قبل كل شيء التكفير عن ذنوبك ، ولاتفعل شيئا قبل ذلك واذا لم تلتزم حبطت مشاريعك واعمالك ستكون مثل شمعة ذائبة تهوي الى الارض ، وسيجعل الرب اعمالك كلها تامة وناجحة باسم الرب اذا ما التزمت ، وسيضاعف الرب جهودك الصغيرة كما جعل هذه الشمعة الصغيرة التي تراها تبقى وقتا مديدا .

وعلى الرغم من ان ريموند أنكر جسامه اثامه ، فانه اعترف وكفر عنها بعدما واجهه بطرس بارتلميو بذنوبه ، واستمر بطرس في توجيه خطابه الى الكونت قائلا : ايها الكونت ان اندروز المبارك يعترض على مستشاريك ، لانهم قدموا نصيحة سوء لغرض ما ، ولذلك انه يأمرك ان تتجاهل مشورتهم الا اذا اقسموا على الا يعطوك نصيحة غير طيبة وهم يعلمون ذلك .

اصغ الي جيدا يا ريموند : ان الرب يأمرك الاتضيع الوقت ، لانه سيساعدك فقط بعد الاستيلاء على القدس ، ولاتجعل واحدا من الحجاج يقترب اكثر من فرسخين عندما تندون من القدس ، واذا نفذت هذه التعليمات فان الرب سيسلمك المدينة .

وبعد هذه الاوامر شكرني القديس اندروز كثيرا لانني حققت تكريس الكنيسة التي شيبت باسمه في انطاكية ، ولم يتكلم حول هذه الامور فقط بل تناول بالحديث امورا اخرى لاتعنيننا الان وبعد ذلك صعد هو ورفيقاه الى عليين .

الفصل العاشر

الاستيلاء على البارة ومعرفة النعمان

تقدم بعد هذا بأمد قصير ريموند وبصحبته الحجاج الفقراء (الطافور) وحفنة من الفرسان ، وتغلغلوا في أرض الشام ، حيث تم لهم الاستيلاء على البارة بكل شجاعة ، وكانت البارة أول مدينة اسلامية على طريقه وهنا قتل الآلاف واستعبد الآفا غيرهم ارسلهم لبيعوا كرقيق في أنطاكية ، وأطلق سراح الجبناء الذين استسلموا قبل سقوط البارة ، وعمل ريموند إثر هذا برأي أمرائه وكهنته فاختار بطريقة تستحق الثناء كاهنا ليكون أسقفا للبارة ، فبعد اجتماع عام تسلق واحد من كهنة الكونت الأسوار ، ثم سأل هذا الكاهن عما إذا كان هناك رجل دين يمكن أن يتلقى ولاء المؤمنين ، ويساعد الكونت واخوته بالتصدي للوثنيين بقدر ما يستطيع.

ووسط الصمت الذي أعقب ذلك ، استدعينا بطرس ، وهو بالأصل من أهل نربونة ، وأوضحنا له على الملأ عبء الأسقفية ، وشجعناه على تولي المنصب إذا كان عازما على الاحتفاظ بالبارة إلى أن يموت ، وعندما وعد أنه سيقوم بذلك ، وافق الناس عليه بالاجماع ، وحمدوا الرب كثيرا لأنهم كانوا يريدون أسقفا رومانيا في الكنيسة الشرقية ، ومنح ريموند بطرس النربوني نصف البارة والمناطق المحيطة بها.

وكانت البارة على مسيرة يومين من أنطاكية ، ومع اقتراب أول أيام تشرين الثاني ، وهو الموعد المحدد لتجمع الحجاج من جديد لمواصلة زحفهم ، ترك ريموند جيشه في البارة وعاد الى أنطاكية مع أسقفه الجديد بطرس وعدد كبير من الأسرى وغنائم كثيرة ، وفي

أنطاكية اجتمع الأمراء جميعا فيما عدا بسليدين أخو غودفري ، الذي سبق له أن اتجه ، بعدما انفصل عن جيش الحجاج الرئيس ، نحو الفرات ، وكان ذلك قبل الاستيلاء على أنطاكية ، وهناك استولى على مدينة الرها ذات الشهرة الواسعة والغنى ، وخاض بنجاح عدة معارك ضد الأتراك.

وقبل أن أنتقل للحديث عن أحداث أخرى لا بد من أن أروي لكم القصة التالية: عندما كان غودفري في طريقه الى أنطاكية مع اثني عشر فارسا ، قابل مائة وخمسين من الأتراك ، فلم يتردد مطلقا ، ولم يجبن بل أعد أسلحته وشجع فرسانه ، وهاجم العدو بكل شجاعة ، غير أن المسلمين أثروا - مرغمين - الاختيار الأحمق للموت بدلا من النجاة بالفرار ، فترجل بعضهم لكي يطمئن الأتراك الخيالة الى أن رفاقهم الرجالة لن يتخلوا عنهم ويلونوا بالفرار ، ونشب قتال عنيف هاجم خلاله فرسان غودفري العدو بكل شجاعة ، وكان عدد هؤلاء الفرسان يساوي عدد الرسل الاثني عشر ، كما كانوا يؤمنون بكل يقين أن الدوق هو كاهن الرب ، ووهب الرب الدوق نصرا مبينا ، حتى أنه قتل حوالي الثلاثين من المسلمين ، وأسر مثل هذا العدو وطارد الهاربين ، فقتل عددا كبيرا منهم أو سبب غرقهم في المستنقع والنهر القريبين ، وعاد غودفري الى أنطاكية ظافرا في نصر بهيج ، وقد حمل الأسرى من الأعداء رؤوس رفاقهم القتلى.

وعقد الأمراء اجتماعا في كنيسة بطرس المبارك ، حيث أخذوا يخططون لاستئناف الزحف نحو القدس ، وسأل بعض من كانوا يحتفظون بقلاع أو أملاك مؤجرة في المناطق المحيطة بأنطاكية: ماذا سيتم بشأن أنطاكية ، من الذي سيحرسها ، ذلك أن الكسيوس لن يأتي ، وتذكروا أنه هرب عندما سمع أن كربوغا قد حاصرنا ، لأنه لم يكن لديه ثقة بقوته أو بجيشه الكبير ، هل سننتظره أكثر مما انتظرناه؟ من المؤكد أن من أجبر أخواننا ومن جاء الى مساعدة الرب على التراجع لن يقدم لمساعدتنا ، ومن جانب آخر: إننا إذا ما

تخلينا عن أنطاكية واستردها الأتراك ، فإن النتيجة ستكون أشد
ضررا وخطورة من الاحتلال الأخير ، لنعطها لبوهيموند ، فهو رجل
عاقل وحكيم يخشى المسلمون جانبه ، وهو رجل سيحميها جيدا .

ولكن الكونت ومعه آخرين اعترضوا على ذلك قائلين : لقد أقسمنا
على صليب الرب ، وأكليل الشوك ، وأثار مقدسة كثيرة ، أننا لن
نحتفظ بدون موافقة الامبراطور ، بأي مدينة أو قلعة في مناطق
نفوذه .

ولهذا انقسم الأمراء وتنافروا بسبب هذه الاختلافات ، وتكلموا
بعنف شديد حتى كادوا يلجأون الى السلاح ، وفي الحقيقة لم يهتم
غودفري وروبرت كونت فلاندرز كثيرا بمسألة أنطاكية ، وكانا
يؤيدان سرا تملك بوهيموند لها ، ولكنهما خوفا من عار الحنث
باليمين لم يتجرأ أي منهما على التوصية له بها ، ونتيجة لذلك
تأجلت الرحلة ، وكل ما يتعلق بها من مسائل ، وكذلك الاهتمام
بالفقراء (الطافور) .

وبدأ الناس بعدما راقبوا عن كثب هذه الضجة بين الأمراء
يصرحون أولا بشكل سري ثم جاهاروا بعد ذلك قائلين : من الواضح
أن قادتنا غير راغبين في قيادتنا الى القدس ، إما بسبب الجبن أو
بسبب اليمين الذي أقسموه لالكسيوس ، لماذا لا نقدم نحن على
اختيار فارس شجاع يمكن أن نعتمد عليه ونأمنه على أنفسنا ونحن
في خدمته ، وبذلك سنصل بمشيئة الرب الى القبر المقدس معه وهو
قائد لنا ، يا الهي ، لقد مضى عامان علينا في أرض
المسلمين ، وفقدنا مائتي ألف جندي ، ألا يكفي هذا؟ لنترك الذين
يطمعون بذهب الامبراطور ، أو ريع أنطاكية ، يحصلون على ما
يودون ، أما نحن الذين هجرنا أوطاننا في سبيل المسيح ، لنستأنف
زحفنا معه قائدا لنا ، وليمت الطامعون بانطاكية في تعاسة وشقاء
مذلما مات سكانها منذ أمد قصير وإذا ما استمر النزاع حول انطاكية
فلنهدم الأسوار ، عندها فقط سيعود زمن حسن النوايا بين الأمراء

كما كان عليه الحال قبل الاستيلاء على المدينة ، ولا يمكن ذلك الا مع تدميرها ، والا فإن علينا ان نعود الى بلادنا قبل ان ينهكنا الجوع ويهتنا التعب.

وأثرت هذ الآراء وغيرها بريموند مع بوهيموند ، فعملا على تسوية الخلافات بينهما ، وفي تاريخ محدد صدرت الأوامر الى الناس بالاستعداد لاستئناف رحلة الحج ، وعند اكتمال كافة التفاصيل المتعلقة بالاستعداد للزحف ، تقدم كونت صنجيل مع كونت فلاندرز ومعهما الناس للدخول الى ارض الشام في اليوم المحدد ، وحاصروا اولا معرة النعمان الغنية وذات التعداد الكبير من السكان ، وتقع المعرة على ثمانية أميال من البارة ، وبسبب قتال سالف جرى معنا وتكبدنا فيه خسائر فاحشة ، فقد عبر أهل المدينة المتعجرفون قابتنا ، وشتموا رجالنا ، وبنسوا صلبانا أثبتت على أسوار المدينة ليثيروا غضبنا ، وفي اليوم التالي لوصولنا عظم غضبنا واشتد على أهل المعرة ، حتى أننا أندفعنا نحو الأسوار بشكل عنفي وكنا بلا شك ، سنستولي على معرة النعمان فقط لو أننا امتلكتنا أربعة سلالم بالاضافة الى السلمين القصيرين اللذان كانا بحوزتنا ، ومع هذا صعد رجالنا سلمينا بخوف ، وقرر الأمراء بناء الآلات ، وبت الحسك ، واقامة حواجز ترابية يمكن منها أن نصل الى السور ، فنهدمه ونسويه بالأرض ، وبينما كان هذا يحدث ، وصل بوهيموند وحاصر قطاعا من معرة النعمان ، وكما نكرنا من قبل ، لم تكن استعداداتنا كافية ، غير أنه بعد وصول الوافد الجديد تشجعنا لأن نفكر بشن هجوم جديد بواسطة ردم الخندق الملىء بالماء والمحيط بالسور ، غير أن هجومنا الجديد ، كان أكثر تعاسة من الأول ولم يكن مجديا.

وإنه لما يحز بنفسي أن أنكر أن المجاعة التي تلت ذلك جعلت أكثر من عشرة آلاف رجل يتبعثرون كالماشية في الحقول ، ينبشون ويبحثون عن حبوب القمح أو الشعير أو الفول أو أي خضراوات ، وعلى الرغم من استمرار العمل في اعداد الات

الهجوم ، فإن بعض رجالنا بلغ من تأثرهم بالبؤس الذي ألم بهم وهجرة المسلمين ، أن فقدوا الأمل في رحمة الرب وولوا الأديار .

غير أن الرب المحامي عن عباده ، أشفق الآن على شعبه ، عندما رآه في حماة اليأس والقنوط ، وهكذا استخدم الرسولين المباركين: بطرس وأندروز ليبلغنا بمشيئته وبسبل تلطيف أمره القاسي ، ففي منتصف الليل دخلا الكنيسة الخاصة بالكونت ، وأيقظا بطرس بارتلميو ، وهو الرجل الذي كانا قد أظهرا له الحربة ، غير أن بطرس بارتلميو الذي استيقظ فجأة ، اعتقد عندما رأى شخصين قبيحين في ملابس قنرة يقفان الى جوار الاناء الثمين الذي يضم الآثار المقدسة ، اعتقد بالطبع أنهما من الصعاليك اللصوص ، وكان القديس أندروز يرتدي قباء كهنوتيا قديما ممزقا عند الأكتاف ، فقد كان على الكتف الأيسر رقعة من القماش ، بينما كان الكتف الأيمن عاريا ، وكان يحتذي حذاء رخيصا ، وكان بطرس يرتدي قميصا خشنا من الكتان يصل الى عقبه ، وسألهما بطرس بارتلميو: من أنتما ياسيدي وماذا تريدان؟

وأجابه بطرس المبارك: اننا رسولا الرب ، أنا بطرس وهذا أندروز ، وقد اخترنا هذا الملابس حتى ترى المكاسب العظيمة التي ينالها من يخدم الرب باخلاص ، لقد قدمنا على هذه الحالة ، وفي هذه الهيئة الرثة ، بالضبط كما ترانا أنت ، الى الرب و الآن انظر الينا ، وبعد هذ الكلمات أصبح بطرس وأندروز أكثر تالقا وأبهى مما يمكن أن تعبر عنه الكلمات ، وخرّ بطرس بارتلميو الى الأرض كما لو كان ميتا ، وقد استبد به الرعب اللوميض المفاجيء من النور ، ومن شدة خوفه تصيب منه العرق حتى بلل الحصيرة التي وقع عليها ، فساعده القديس بطرس على الوقوف وقال له: لقد وقعت بسهولة.

ورد بطرس بارتلميو: نعم يا سيدي ، ثم شرح القديس بطرس الأمر بقوله: هكذا سيقع كل الكفار والمعتمدين على أمر الرب ، غير

أن الرب سيرفعهم مثلما رفعتك بعد سقوطك ، إذا نمسوا على أعمالهم الشريرة واستغاثوا بالرب ، زد على هذا أنه لطلما عرقك على الحصرة ، الرب سيرفع من يستغيثون به ويمسوا نوبهم ، لكن أخبرني: كيف يتدبر الجيش أمره؟

وأجابه بطرس بارتلميوس: بالتأكيد لقد أثارت المجاعة قلق أفراد الجيش ، وهم في تعاسة بالغة ، وهنا اندفع بطرس قائلاً: إن الذين تركوا الرب وراء ظهورهم لا بد من أن يخافوا ، لأنهم نسوا المخاطر التي أنقذهم الرب منها ، ولم يقدموا له الحمد والشكر ، إنك ناديت الرب عندما كنت راكعاً ، وناديت به عند أنطاكية ، حتى أننا سمعناك في السماء ، نعم لقد سمعك الرب وقدم لك ليلياً على انتصاره لك ، وهكذا منحك نصراً رائعاً ومجداً عظيماً على الذين كانوا يحاصرونكم وعلى كربوفاً. لقد آمنت الرب كثيراً ، الآن أي رب تؤمن به أنت بالذات حتى تأمن على نفسك؟ هل تستطيع الجبال الشاهقة ، أو المغائر الخفية أن تحميك؟ إنك لن تكون في مأمن حتى في أشد المرتفعات منعة ولو كان معك كل ما تحتاج إليه من ضروريات ، لأن مائة ألف خصم سيهدون كل واحد منكم ، إن في صفوفكم القتل والنهب والسرقه ، فضلاً عن انعدام العدالة كما أن هناك زنا ، مع أنه مما يسعد الرب أن تتزوجوا ، وفيما يختص بالعدالة إن الرب يأمر أن تكون جميع السلع الموجودة لدى الشخص الظالم المستبد بالفقراء ملكية عامة ، وأن تؤدوا عشوركم ، واعلموا أن الرب على استعداد لأن يعطيكم كل ما تحتاجون إليه ، إنه سيعطيكم معرفة النعمان بسبب رحمته لا بسبب أعمالكم ، حاصروها الآن في أي وقت ترغبون ، افعلوا ذلك لأنكم ستأخذونها بدون ريب.

وفي الصباح التالي سمع الكونت بخبر هذ التجليات ، وبناء عليه قام ومعه أسقف البارة وأورانج باستدعاء الناس جميعاً إلى اجتماع عام ، وتصديق المؤمنون تحذوهم الآمال الكبيرة بالاستيلاء على المدينة ، تصدقوا بسخاء ، وقدموا الصلوات إلى الرب

القدير ، ليحرر شعبه المسكين من أجل اسمه فقط ، وبعد استكمال هذه الاستعدادات الروحية ، صنعت السلالم بسرعة وأقيم برج خشبي ، وأقيمت السواتر ، وبدأ الهجوم عند نهاية اليوم ، وأطلق المحاصرون من داخل معرة النعمان الأحجار من المجانيق والنبال والنيران ، وخلايا النحل ، والجير على رجالنا الذين تمكنوا من تدمير أسوارهم ، وبفضل قدرة الرب ورحمته ، لم يصب أحد ، هذا من جانب ومن جانب آخر هاجم حملة الصليب الأسوار بكل جراءة ، واستخدموا الصخور والسلالم في هجوم استمر من طلوع الشمس حتى غروبها ، حقا لقد كان قتالا مخيفا لم يسترح فيه أحد ، ولم يشك أحد في نتائجه الظاهرة ، وأخيرا ابتهل الجميع إلى الرب أن يكون رحيمًا بشعبه وأن ينفذ وعود رسله.

وأعطانا الرب الموجود يوما المدينة حسبا وعد رسله ، وكان أول من تسلق الأسوار جوفيه أوف لاستورز ثم أعقبه مسيحيون آخرون هاجموا الأبراج والدفاعات ، غير أن الليل أوقف القتال وما زالت بعض أبراج المدينة وأجزاء من المدينة نفسها في أيدي المسلمين ، وتوقع الفرسان وقفه مقاومة أخيرة في الصباح المقبل ، فارتعدوا وحرسوا الأسوار الخارجية للقضاء على أي شخص يحاول الهرب ، غير أن بعض حملة الصليب ممن لم يعبأ بحياته ، لأن الجوع جعلهم يحتقرون الحياة استمروا في مقاتلة أهل المعرة تحت جنح الظلام ، وهكذا حصل الفقراء (الطافور) على حصاة الأسد من الغنائم والبيوت في معرة النعمان ، ولم يجد الفرسان الذين انتظروا حتى الصباح ليدخلوا سوى بقايا ليس لها قيمة ، وفي هذه الأثناء كان المسلمون يختبئون في مغانر تحت الأرض ، وبالفعل لم يظهر منهم أحد في الشوارع ، واستولى المسيحيون على جميع السلع التي كانت فوق الأرض ، ودفعتهم الآمال للحصول على ثروات المسلمين المخيبة تحت الأرض ، فأطلقوا الدخان والنيران والأبخرة الكبريتية على الأعداء لإخراجهم من مغانرهم ، وخيب نهبهم للمغانر أمالهم ، وعندها

عنبروا كل واحد من المسلمين وصلت أيديهم اليه ، حتى الموت ، وجرب بعض رجالنا اقتياد المسلمين في الشوارع على أمل معرفة أماكن الثروات والخزائن الدفينة ، وكان المعريون يقودون أسريهم

الآبار ، ثم يلقون أنفسهم فجأة ليلقوا منيتهم ، مؤثرين بذلك الموت على كشف النقاب عن أماكن الأمتعة والخزائن العائدة لهم أو لسواهم ، وهكذا لاقوا بسبب عنادهم الموت جميعا ، وقد رميت جثث المعريين في السباخ والأماكن الواقعة خلف الأسوار ، وعلى العموم ، ولما تقدم من أسباب لم تمنحنا المعرفة الكثير من المنهوبات . ومع ان فرسان بوهيموند لم يكونوا على درجة عالية من النشاط أثناء الحصار ، فقد نالوا عددا أكبر من الأبراج والمخيول والأسرى ، وسبب هذا قيام شعور بالاستياء بين البروفناسيليين والنورمان ، وقضت إرادة الرب أنذاك أن ترينا أمرا معجزا .

وحسبما سلف بي الذكر ، وعلى الرغم من أننا شرحنا للناس قبل الاستحواذ على معرة النعمان الأوامر والتوجيهات الرسولية لكل من بطرس وأندروز ، لكن بوهيموند وأصحابه سخروا منا ، وفي الحقيقة شكل بوهيموند واتباعه النورمان عقبة ولم يكونوا عوناً ، ولهذا كان من الطبيعي أن حاشية ريموند كانت غاضبة وغير راضية لان النورمان استحوزوا على الشطر الأعظم من الأسلاب ، وفي الختام اختلف المقدمون ، فقد عزم ريموند على إعطاء المعرة الى اسقف البارة ، غير ان بوهيموند تشبث بعدد من الأبراج التي استولى عليها واطلق تحنيرا قال فيه : « إنني لن أتفوق مع ريموند حول أي مسألة ما لم يتنازل لي عن أبراج انطاكية المحتفظ بها » وفي لجة هذه الفوضى والشحناء مضى الفرسان وعامة الناس يتساءلون متى سيتفضل السادة البارونات في استئناف الزحف ، لانه على الرغم من أن الزحف العام قد بدأ منذ أمد بعيد ، غير أن كل يوم بدا كما لو انه بداية حملة صليبية جديدة ، ذلك أن الهدف المذشود لم يتحقق بعد ، وأوضح بوهيموند انه لن يستأنف الرحلة

قبل عيد الفصح ، فقد حل الان عيد ميلاد مولانا المسيح ، وهكذا فقد
عد كبير الامل ، وتحولوا راجعين وذلك بسبب هذه المواقف وقلّة
الخيول ولغياب غودفري وهجرته مع عدد كبير من الفرسان الى
بلدين صاحب الرها .

وبعد لأي اجتمع اسقف البارة مع عدد من النبلاء وجمهور من
المعدمين ، وطلبوا من الكونت ريموند تقديم العون ، فبعد ما فرغ
الاسقف من عظته انحنى أمام الكونت الذي تسلم الحربة المقدسة ،
والتمسوا منه - والدموع تنهمر من عيونهم - أن يجعل نفسه قائدا
للجيش ومقدما له ، وذلك لما تضيفه عليه حيازته للحربة المقدسة من
مزايا ، ولكونه محط فضائل الرب ونعمائه ، فانه لن يخاف من
الاستمرار في قيادة الرحلة بامان مع حشود الفرنجة ، واذا ماتوا
تلكا الكونت ريموند في تحمل اعباء ذلك يتوجب عليه تسليم الحربة
لجمهور الحجاج ، فعندها سيستألف هؤلاء زحفهم نحو الاراضي
المقدسة تحت قيادة الرب ، ولاطفهم الكونت ريموند ، ولم يحدد
موعدا لاستئناف الرحيل ، خشية منه الا يتبعه البارونات
المسافرين ، لانهم كانوا ينظرون اليه بعين الحسد والغيرة .

ولنعمل على انهاء هذه الحكاية المحزنة ، فقد كانت الغلبة لدموع
المعدمين ، واضطر ريموند الى تحديد يوم الخامس عشر موعدا
لاستئناف الرحيل ، واثار هذا غضب بسوهيموند ، فاعلن في جميع
ارحاء المدينة ان تاريخ الرحيل سيكون اليوم الخامس او السادس ،
ثم مالبت ان عاد الى انطاكية مباشرة ، وهنا انبرى ريموند مع
اسقف البارة نحو الاهتمام بتجهيز الحملة ، واختار الاشخاص
وحدا عددهم ، وطلب الكونت ريموند ، في الوقت نفسه من غودفري
والذين كانوا معه خارج معرفة النعمان ، التجمع في مكان محدد واحد
ومن ثم القيام باجراء الاستعدادات اللازمة لاستئناف الزحف .

ثم اجتمع البارونات وعقدوا مؤتمرا في قلعة الروح الواقعة في

منتصف الطريق بين انطاكية ومعرة النعمان ، بيد ان مؤتمره لم يسفر عن اتفاق ، لان المقدمين وعدد كبير ممن سواهم لاسيما ممن اتباعهم عرضوا العديد من المعانير التي تعوق استئناف الزحف ، ونتيجة لذلك دفع الكونت ريموند الى كل من غودفري وروبرت النورماندي مبلغ عشرة الاف صولدي لكل واحد منهما ، ومبلغ ستة الاف لروبرت كونت فلاندرز ، وخمسة الاف لتانكرد ، ومبالغ مناسبة لآخرين فاشترى موافقتهم .

وفي تلك الآونة راجت انباء بين المعدمين افادت ان ريموند قد خطط لمركزة شحنة عسكرية في معرة النعمان تضم عددا من فرسان الجيش ورجاله ، وهنا سخط المعدمون ودارت الاحاديث فيما بينهم وقالوا : ان هذا سر الامور ، خلافات ومشاحنات في انطاكية ، ومثل ذلك في معرة النعمان ، فهل ياترى ستتفجر النزاعات بين البارونات ، ومن ثم تتدمر جيوش الرب في كل مكان يمنحنا الرب اياه ؟ لنضع اذا احدا للصراع هنا ، وحتى يعم السلام بين القيادة وتعدم الشحاء ، ولتهدأ خواطر ريموند ويزول قلقه ، وكيفا لا يضيع الجيش ويتبدد ، هيا بنا لنقوض اسوار المعرة ونهدمها .

وهكذا هب الجميع حتى المرضى والضعفاء ، واقبلوا بعدما نهضوا من فراشهم واندفعوا نحو الاسوار وهم متكئين على عصيهم ، وشرعوا في تقويضها ، وكنت ترى الرجل الاعرج النحيف منهم يدفع نحو الامام ونحو الخلف الحجارة الضخمة ، ويلقي الى خارج الاسوار بحجارة لا يكاد ثلاثة ثيران او اربعة يزحزحونها في الاحوال العادية ، وتجول اسقف البارة ورجال ريموند في المدينة ، وهم يحذرونهم ويطلبون منهم التوقف عن اعمال التخريب ، لكن الفقراء كانوا يهرولون مبتعدين عن الاسوار ويتخفون عند اقتراب الاسقف والجند ، انما سرعان ما كانوا يعودون ويستأنفون اعمالهم ، عندما يبتعد هؤلاء عنهم ، اما الذين كانوا يخشون العمل جهارة وكانت تشغلهم مشاغل اخرى ، فكانوا يعملون اثناء الليل ،

وهكذا كان الجميع يعلمون ولم يحل المرض او الضعف بين اي انسان وبين المساهمة في تدمير الاسوار .

ومالبت ان اصبح شح الطعام حادا الى درجة ان المسيحيين كانوا يأكلون بكل متعة وتلذذ جدث المسلمين الجائفة التي كانوا قد رموها في السباخ قبل اسبوعين أو ثلاثة ، وأثار هذا المشهد الاشمئزاز في نفوس العديد من الحجاج والغرباء ، ومع تزايد الشح بالمؤن ولتردي الاوضاع فقد الكثيرون الامل في وصول تعزيزات فرنجية فقفلوا عائدين ، وكانت رداً فعل المسلمين والاتراك وتعليقاتهم على ماشاهدوه قولهم : ان هذا العرق العنيد الذي لايعرف الرحمة ، ولم يرحمه الجوع او السيف او شتى المضاطر لمدة عام عن اسوار انطاكية ، ويتلذذ بأكل اللحم البشري ، لايمكن ان يقاوم او يقهر ، من الذي يستطيع ان يفعل ذلك !؟

وروج المسلمون الكثير من القصص عن هذه الافعال وسواها من الاعمال الخالية من الانسانية ، مما اقترفه الصليبيون ، ولم ندرك وقتها وقع ذلك وأثره وان الرب قد جعل منا سببا من اسباب الرعب

وبعد ماعاد ريموند الى معرة النعمان استبدبه انذاك الغضب وسخط اشد السخط على اتباعه ، ومع هذا أثنى على الرب وشكره ، ثم أمر بتقويض أسس الأسوار ، وذلك بعدما اقتنع ان تهديدات أسقف البارة والبارونات الاخرين وقوتهم لن تثني المعدمين عن عزيמתهم ، وفي الوقت نفسه كان نقص المؤن وشح الاطعمة يتفاقم يوما تلو الاخر ، وصدرت الينا الاوامر بتوزيع الصدقات ، والصلاة من اجل استئناف الزحف ، ذلك ان اليوم المحدد كان يقترب ، وفي هذه الأثناء ازداد قلق كونت طولوز بسبب تغيب البارونات الكبار ، ولتفاقم اثر المجاعة في اضعاف الرجال ، ولقد أصدر أوامره الى المسيحيين بالبحث عن الاطعمة في الاراضي الاسلامية ، ووعد ريموند انه سيسير مع فرسانه في الطليعة ، غير

ان بعض اتباعه الغاضبين تشكوا اليه قائلين : ان كل مالدينا لايتجاوز ثلاثمائة فارس وحفنة من الرجاله ، فكيف يمكننا تقسيم القوات بحيث يمضي بعضنا الى داخل الاراضي الاسلاميه ، ويبقى بعض اخر بين انقاض معرة النعمان بلا قدرة على الدفاع ، ثم اسهبوا في الحديث حول اضطراب الكونت ريموند وعدم استقراره التام .

ومع ذلك سار الكونت في النهاية نيابة عن الفقراء نحو اراضي المسلمين ، وتمكن من الاستيلاء على بعض الحصون واسر بعض الاسرى ، كما قام بالكثير من اعمال السلب والنهب ، ولدى عودته مبتهجا بظفره بعدما قتل عددا كبيرا من المسلمين ، تمكن المسلمون من قتل ستة او سبعة من رجالنا ، ومن المثير للدهشة البالغة ان تلك الجثث كان مرسوما عليها صلبان على الكتف الايمن ، ولقد شعر المشاهدون ومعهم الكونت ريموند براحة عظمى لدى رؤيتهم لهذا المنظر ، وقدموا الشكر والصلوات الى الرب القادر على كل شيء ، لتذكره الفقراء من عبيده ، ولتوليه اقتناع المتشككين الذين مكثوا في القرب من معرة النعمان مع الامتعة عندما حملوا معهم واحدا من الجرحى الذي كان قد اصيب اصابات مميتة ، لكنه ظل يتنفس ، ولقد رأينا معجزة باهرة في هذا الجريح البائس ، فقد كان جسمه قد مزق ، حتى انه لم تعد توجد فيه بقعة تخفي روحه ، ومع هذا عاش هذا الرجل سبعة ايام او ثمانية لم يذق خلالها الطعام ، وجاء هذا شاهدا في تلك الاونة على ان يسوع الماضي الحكيم والارادة بكل تأكيد ، كان هو الرب الذي خلق الصليب الذي حمل به سلى كتفه .

الفصل الحادي عشر

استئناف الرحلة والشروع بحصار عرقة

شجع حسن الطالع مع شارات الصليب الطيبة الباحثين عن الطعام ، فخلفوا غنائمهم عند كفر طاب على مسافة أربعة فراسخ من معرة النعمان ، وعاد ريموند وبرفته الاصدقاء والاتباع الى معرة النعمان ، وفي اليوم المعين رحل الكونت وكهنته واسقف البارة ، وسار الجميع حفاة الاقدام يطلبون رحمة الرب وحماية الصديقين ، بينما راح اللهب الذي اشعله المسيحيون يعلو أنقاض المعرة ، وسار تانكرد في المؤخرة مع أربعين من الفرسان وأعداد كبيرة من الرجالة ، ولدى سماع حكام المناطق المجاورة أنباء استئناف الحملة ، أرسل سادة العرب الى ريموند يلتمسون المهادنة ويعرضون العروض الكثيرة والوعود الجمة بالاستسلام في المستقبل ، يضاف الى هذا السلع التي يمكن ابتياعها او الحصول عليها بالمجان .

وتابعنا الزحف بأمان معتمدين على وعودهم ، وكانوا قد سلمونار هاننهم كضمان ، ومع هذا نعتقد ان الأدلاء الذين بعث بهم الينا حاكم شيزر اساءوا ارشادنا في اليوم الأول ، وكنا وقتها بحاجة الى كل شيء باستثناء الماء الذي توفر عند موقع المعسكر ، غير ان هؤلاء الأدلاء أنفسهم قادونا في اليوم التالي الى واد حشرت فيه ماشية الحاكم والمناطق المجاورة جميعا ، ولعل ذلك كان بسبب ما اشعرناهم به من خوف ، ومع ذلك لو أمر الأقليم بأكمله بإيقاف زحفنا لما استطاع ذلك لأننا امتلكننا ايضا مانحتاج اليه من معلومات ، ففي ذلك اليوم قام ريموند أوف ايل ورفيق له بأسر مبعوث الحاكم ومعه رسائل تحرض جميع السكان على

الجفلة ، ولدى سماع الحاكم خبر اعتقال مبعوثه ، قال : يارجالى تقدموا الى الفرنجة ، عوضا عن الفرار بسرعة من امامهم حسبما امرت من قبل ، لانه طالما ان الرب قد اختار هذا الجنس فلن أقف معترضاً في طريق رغباته ، ثم حمد هذا الحاكم الرب الذي يرزق الذين يخشونه ويلبى حاجاتهم .

وكان مشهد هذا القسطنطينية الكبير - غير المتوقع - من الماشية ، ثم الاستيلاء عليه سبباً دفع فرساننا وميسوري الحال منا الى الذهاب الى شيزر وحمص بأموالهم لشراء الخيول العربية قائلين : مادام الرب قد تكفل امر اطعامنا فلنتكفل نحن بدورنا شأن الفقراء والجيش ، وهكذا حصلنا على نحو الف من أفضل الجياد للحرب ، ويوما تلو الآخر استرد الفقراء عافيتهم ، وغدا الفرسان اشد قوة ، وبدا الحال وكأن الجيش يزداد عدداً ، وبتنا كلما تقدمنا بزحفنا كلما زادت نعم الرب علينا ، وعلى الرغم من توفر المؤن ، فقد جرب بعض الأمراء اقناع ريموند بالتوقف عن الزحف بعض الوقت بهدف الاستيلاء على جبله المدينة الساحلية ، بيد ان تانكرد يعاونه بعض الرجال الشجعان الطيبين حالوا دون ذلك معترضين بقولهم : لقد زارنا الرب وزار الفقراء ، فلماذا يتوجب علينا التحول عن متابعة الرحلة ؟ ألم تكفنا المصاعب السالفة التي اعترضتنا اثناء معركة انطاكية مع البرد والجوع والذي عانىنا من البؤس والشقاء الانساني ، هل علينا وحدنا محاربة العالم كله ، ولماذا ؟ فكروا قليلاً وتمعنوا فمن بين مائة الف فارس لم يكذبى سوى اقل من الف ، ومن بين مائتي الف من الرجالة المسلحين ، لم يتبق للقتال غير اقل من خمسة الاف ، هل سنظل نلتكأ حتى تتم تصفيتنا جميعاً ؟ هل سيقدم المسيحيون من الغرب اذا سمعوا عن احتلال انطاكية وجبله وسواهما من المدن الاسلامية " كلا بالطبع علينا الزحف نحو القدس المدينة التي جننا نسعى نحوها ، ومن المؤكد ان الرب سيمنحنا اياها ، ووقتها فقط سيجلوا سكان المدن الأخرى ، الواقعة على طريقنا مثل جبله

وطرابلس وصور وعكا ، عنها خوفا من موجة الحجاج الجديدة المقبلة من العالم المسيحي.

وفي الوقت نفسه استمر العرب والأتراك في مهاجمة الساقية يقتلون الضعفاء من الفقراء ويستولون على أمتعتهم ، وبعد واقعتين من هذا القبيل نصب الكونت كميناً وقف فيه أثناء مرور الحجاج ، وهنا عندما اندفع المسلمون الذين لم يرتدعوا - وممن كان يحدوه الأمل بالأسلاب - خلف جيشنا حسب عادتهم من قبل ، مروا الآن أمام كمين الكونت ، فانقض ريموند وفرسانه عليهم ، فأوقعوا الفوضى بين صفوفهم وقتلوه ثم عادوا سعداء نحو بقية الجيش ومتهم خيولهم ، وسار ريموند وعدد كبير من الفرسان بعد هذه الواقعة خلف الساقية لحراستها ، وبهذه الوسيلة توقف العدو عن محاولاته في اصطلياد الفقراء ، ومع هذا الاجراء الاحتياطي سار فرسان مسلحون آخرون مع كونت نورماندي ، وتانكرد وأسقف البارة أمام المقدمة حتى لا يستطيع العدو النيل منا من الأمام أو الخلف .

ومما هو جدير بالذكر ان اسقف البارة كان قد خلف في البارة حامية قوامها سبعة فرسان وثلاثين من الرجالة تحت امره وليم بن بطرس أوف كونيلىا كوم ، غير انه بناء على نصيحة الكونت انضم الى الجيش لأن الكونت استهدف زيادة عدد الفرسان الذين كانوا سيزحفون من المعرة الى القدس ، وفي وقت قصير تمكن وليم - وهو رجل مؤمن عظيم الاخلاص - بمعونة الرب ان ينجح رغبات الاسقف فوق تصوراته ، فبدلاً من ثلاثين من الرجالة اصبح لديه سبعون مع ستين او اكثر من الفرسان .

وإثناء اجتماع لنا وافقنا على تجنب مدينة دمشق والزحف نحو ساحل البحر ، لأنه كان بإمكاننا الاتجار مع قبرص والجزر الأخرى اذا ما انضمت الينا سفننا من انطاكية ، وبعد ان ركبنا هذا الطريق وجدنا ان سكان البلاد قد جفلوا من مدنتهم وهجروا تحصيننا تهم

ومزارعهم ذات المخازن المليئة ، ثم وصلنا الى واد خصيب جدا (وادي النضارة) بعدما قمنا بالدوران حول جبال عالية ، وواجهنا هنا بعض الفلاحين متفاخرين بأعدادهم وبقلعتهم المنيعه (حصن الأكراد) ولهذا لم يظهروا نحونا ادنى نوايا طيبة و لم يعطونا أية اشارة الى أنهم سيتخلون عن قلعتهم - بل على العكس من ذلك انقضوا علينا من أعلى جبلهم وقتلوا بعض الأتباع المسلحين والرجالة الذين كانوا يبحثون عن الكلا هنا وهناك وسط الحقول ، وحملوا الأسلاب الى قلعتهم ، وزحف رجالنا الذين اغضبهم ماجرى نحو سفح الجبل الذي قامت عليه القلعة ، غير ان السكان لم ينزلوا لملاقاتنا ، وعقدنا مجلسا للحرب ، تشكل بعده فرساننا ورجالتنا في صفوف تسلقت الجبل من ثلاثة جوانب وهزموا الفلاحين ، وكان تعدادهم ثلاثين الفا من المسلمين الذين كانوا يشغلون القلعة ، ومكن الموقع هؤلاء من التراجع وأعطاهم الفرصة للاعتصام بالقلعة او في اعلى المنحدرات وهكذا اعاقونا لبعض الوقت .

انما عندما صرخنا بصيحة حربنا : « ساعدنا يارب ، ساعدنا يارب » مات حوالي المائة من المسلمين لانه تب في قلوبهم الرعب وخافوا خوفا شديدا ، او لانهم خنقوا في الازحاح لدى الاندفاع للدخول الى القلعة ، وطبعا جرى خارج الأسوار - كما هي العادة - نهب كبير للمواشي والخيول والأغنام ، وحدث هذا حيث كنا نحارب ، وهنا حدث انه بينما كان الكونت وفرسانه يجدون في القتال ، طمع المعدمون منا بالغنائم ، وبدأ الفقراء الواحد تلو الآخر ، ثم الرجالة الفقراء وأخيرا الفرسان الفقراء ، بالتخلي عن ميدان القتال ومن ثم العودة الى خيامهم التي كانت على بعد نحو من عشرة أميال .

وفي الوقت نفسه ، أمر ريموند فرسانه ورجاله بالتحصن في مواقعهم ، غير ان المسلمين وقد راوا صفوف الفرنجة بدأت تخلوا من المقاتلين ، شرعوا بالنزول من الجبل مع الذين كانوا داخل

القلعة ، واخذوا في رص صفوفهم وتقويتها ، ولم يتنبه ريموند الى ما حصل ، وكاد ان يفقد الاتصال بفرسانه عبر ممر مقفر شديد الانحدار ، فهناك سارت الخيول في رتل افرادي ، وفي مواجهة هذا الخطر تظاهر ريموند بالتقدم مع رجاله وكأنه على نية الهجوم على المنحدرين من أعلى الجبل مما جعل المسلمين يترددون ، وفي هذه الساعة انعطفت الفرنجة وتحولوا نحو منطقة خيل اليهم انها امنة في الوادي ، وعندها لاحظت كتيبتنا الاعداء هذه المناورة ، وكانت احداها على الجبل والآخرى في القلعة ، ولدى مشاهدتهم قواتنا تهبط منحدره من الجبل ضموا قواتهم واندفعوا يهاجمون رجال الكونت ، وتحت وطأة الهجوم سقط بعض رجالنا من على خيولهم ، بينما اندفع آخرون عبر اماكن شديدة الانحدار فسقطوا وهكذا افلتوا من الموت بأعجوبة ، غير ان بعضهم مات ميتة بطولية .

ومن المؤكد ان ريموند لم يتعرض قط لمثل هذا الخطر الذي كاد ان يفقده حياته ، ولهذا حنق في نفسه حنقا شديدا ، وغضب على قواته اشد الغضب حتى انه لدى عودته الى الجيش وجه التهمة الى فرسانه علنا داخل المجلس بالتخلي عن القتال بدون اذن منه وبتعريض حياته للخطر ، وهنا اقسام الجميع وتعاهدوا على متابعة الحصار الى ان يجعلوا القلعة ببركة الرب دكا دكا . لكن الرب مرشد المسيحيين وحاميهم من كل الكوارث لم يحجهم الى هذا ، فقد القى الرعب في قلوب المدافعين الى حد انه في تعجلهم بالفرار ، تخلوا عن موتاهم فلم يدفنوهم ، وفي الصباح لم نجد في انتظارنا سوى غنائم الحرب ، وقلعة يسكنها الأشباح :

وتأثر رسل امير حمص وحاكم طرابلس ، الذين كانوا في معسكرنا اثناء هذه الوقائع ، بمنظر شجاعتنا وبقوتنا ، فتوسلوا الى ريموند ان يأنن لهم بالانصراف مع وعد بالعودة سريعا ، وبالفعل رحلوا مع مبعوثنا وبعد امد قصير عادوا محملين بالهدايا الفخمة ومعهم خيول كثيرة ، وكان سبب هذا كله الخوف

الذي استبدد بالمنطقة بأسرها بعد أخذنا للقلعة التي لم يكن بإمكان أحد نيلها من قبل ، زد على هذا ، بعث سكان المنطقة برسالة الى ريموند ، والتمسوا منه ارسال راياته وأختامه حتى يتسلم مدنهم وقلاعهم ، وانكر ان العادة جرت في جيشنا وقضت باحترام راية اي فرنجي وعدم مهاجمة الموقع المرفوعة عليه ، وهكذا رفع حاكم طرابلس رايات الكونت على قلاعه .

ونتيجة لهذا التحول وضع ان شهرة كونت طولوز لاتفوقها شهرة ومكانة لاتعلوها مكانة قائد فرنجي آخر ، وتوجه بعض فرساننا كمبعوثين الى طرابلس ، وهناك بهرم الثراء الملكي الذي شهدوه وراعتهم الممتلكات الغنية و المدينة المزدهمة بالسكان ، ولذلك اقنعوا ريموند بأن حاكم طرابلس سوف يمنحه خلال اربعة ايام او خمسة كميات من الذهب والفضة كبيرة تقرر عينه بها اذا محاصر عرقة ، وعرقة موقع حصين جدا ، لايمكن لقوة بشرية التغلب عليه ، ومع هذا حاصرنا عرقة بناء على رغباتهم ، وهكذا جعلنا رجالا شجعانا منا يعانون متاعب لم يعرفها أحد ، ويؤسفني القول : اننا تحملنا خسائر هائلة كان منها العديد من الفرسان المميزين ، وقد مات واحد من هؤلاء الفرسان واسمه بونز أوف بالازون نتيجة اصابته بحجرة اطلقت عليه من عرادة ، وكانت توسلاته هي التي جعلتني اواصل هذا العمل الذي تجشمت عناء كتابته من أجل جميع اصحاب العقيدة المستقيمة ، لاسيما الذين يعيشون وراء جبال الالب ، ومن أجلك أنت ، يا صاحب النيافة اسقف فيفييه .

وسأحرص عظيم الحرص بالهام من الرب الصانع الحقيقي لهذه الأحداث ، على اكمال روايتي بالحب نفسه الذي بدأت به داعيا وراجيا أن يثق كل من سيسمع بهذه الأشياء بحقيقتها ، وليثقلني الرب بأهوال الجحيم ، وليمحووا اسمي من سجل الأحياء اذا اضفت - بدافع الحماس لأي شخص أو الكراهية - اي شيء الى هذا الكتاب غير ماصدقته أو رأيتة ، وعلى الرغم من جهلي لأشياء

كثيرة انني اعرف ان من واجبي - منذ ان تقدمت الى الكهنوت على صليب الرب - ان اطيع الرب ، وان احكي الحق ، والا الفسق الاكاذيب ، وبودي الاستمرار بالود نفسه والمحبة ذاتها في سرد اخبار تاريخي ، حسبما حدث بولس على ذلك عندما قال : « ان المحبة لاتسقط ابدا وليساعدني الرب » (الرسالة الاولى الى اهل كورنثوس : ٨ / ١٣)

وفي اثناء الحصار المطول كانت سفننا القادمة من انطاكية واللانقية مع السفن الاغريقية وسفن البنادقة ترسو وبها الحبوب والنبذ والشعير ولحم الخنزير وسلع اخرى يمكن بيعها ، ومع هذا سرعان ما ابصر البحارة عائدون الى موانئ اللانقية وطرطوس لأن عرقة وقعت على مسافة ميل من البحر ، ولم تجد السفن مكانا ترسو فيه ، وكان المسلمون قد جفلوا من طرطوس قبل حصار عرقة وطرطوس مدينة جيدة التحصين لها أسوار داخلية وخارجية ، كما كان بها كميات كبيرة من المؤن ، وقد هجرها سكانها بسبب الرعب الذي بثه الرب في قلوب المسلمين والعرب في هذه المنطقة ، وهو رعب جعلهم يوقنون أننا كنا نمتلك قوى كبيرة ، وننوي تدمير بلادهم بلا شفقة .

ومع ذلك امطرنا الرب بمختلف انواع المصائب وذلك انه لم يشأ مساعدتنا في حصار قمنا به في سبيل مصالح ظالمة وليس في سبيله ومن المثير للدهشة ان المسيحيين بعدما كانوا متشوقين للمعارك ويستعدون لها باتوا الآن لايميلون الى القتال ولايتمتعون بالحياة ، ومع هذا سار جند المسيح الملهمين اما جرحى او مرهقين بعد ما حاولوا عمل كل شيء ، لكن وجدوا ان لاطائل من وراء جهودهم .

و في اثناء حصار عرقة مات انسلم اوف ريمونت ميتة مجيدة فقد افاق صباح ذات يوم فاستدعى كاهنة اليه واعترف بزلاته واثامه وطلب الرحمة من الرب ، وتحدث انه على وشك الموت ، ووقف الذين

سمعوه مذهشين لان مقاله صدمهم ولان انسلم بدأ سلما معاق ،
وهنا هتف بهم قائلا : لاتذهشوا واصفوا الي : رايت في الليلة
المنصرمة للورد انجلراند من سان بول ، وكان قد مات في المعرة ،
وسالته وانا في كامل وعيي : ماالذي يجري هنا ، انت مت وارك
الان هنا حيا ؟ فرد علي لورد انجلراند : ان الذين يقتلون في خدمة
المسيح لايموتون ابدا ، فسالته مجددا عن مصدر بهائه المنقطع
النظير فاجابني قائلا : ليس في هذا ما يدهش لاننى اعيش في دار
رائعة ، وفي الحال اراني بيتا في عليين رائعا ومريحا لم أر ما
يضاهيه ، و بينما وقفت مذهولا امام المشهد قال لورد انجلراند
هناك بيتا اجمل منه كثيرا معد لك غدا ، وبعد ذلك صعد .

وبعدما انتشرت هذه الحكاية انتشارا واسعا ، تقدم انسلم في
اليوم نفسه الى قتال بعض المسلمين الذين تسللوا الى خارج قلعتهم
على امل الاستيلاء على شيء او اصابة شخص ما ، وفي القتال الذي
اعقب ذلك قاتل انسلم بكل شجاعة ، غير انه اصيب في راسه
بصخرة من حجارة المنجنيق فتترك هذا العالم ليعيش في بيته
السماوي الذي اعده له الرب .

وقدم بعد ذلك الى عرقه رسول من عند ملك بابليون (مصر) مع
رسلنا الذين سرحهم بعدما حبسهم عنده لعدة سنة ، وكان هذا الملك
مترددا بين اختيارنا او اختيار الاتراك ، وقد عرضنا على رسوله
الشروط التالية : ان هو ساعدنا في القدس او اعاد هذه المدينة الينا
مع ما يتبعها فاننا سنعيد اليه مدنه السالفة التي كان الاتراك قد
انتزعوها منه وذلك في حالة استيلائنا عليها ، وبالإضافة الى ذلك
سنقتسم معه جميع المدن التركية الاخرى التي لاتقع في نطاق
ممتلكاته ولكن ياتي الاستيلاء عليها بمساعدة منه .

وترددت اقاويل بان الاتراك قد وعدوه انه اذا ما تحالف - ملك
مصر - معهم ضدنا فانهم سيقدسون عليا قريب محمد(صلى الله

عليه وسلم) الذي كان يقده ، وسيتعاملون بنقوده ويدفعون له الجزية وسيوافقون ايضا على تنازلات اخرى لم نتعرف اليها .

ومن رسائل عثرنا عليها في خيام ملك مصر بعد معركة عسقلان كان قد بعث بها اليه الكسيوس لابد انه قد عرف ان جيشنا كان صغيرا وان الامبراطور كان يتآمر على تدميرنا ، ولهذا السبب وغيره احتبس رسلنا عنده في مصر لمدة سنة ، اما الان فعندما وصلته تقارير عن دخولنا الى اراضيه وما رافق ذلك من تدمير لقراه وحقوله واشياء اخرى ابلغنا انه يمكن لمائتين او ثلاثمائة منا ان يمشوا كل مرة الى القدس انما بدون سلاح ، ثم يعودوا بعد عبادة الرب ، لكن ثقة منا برحمة الرب رفضنا عرضه وابلغنا انه ما لم يعد الينا القدس بدون تحفظات فسنزحف على مصر .

وانكرم ان الامير الذي كان يحتل القدس انذاك تمكن من ذلك بعد ما وصلته اخبار الكارثة التركية في انطاكية ، فقد حاصر القدس ، وهو يعرف ان الاتراك الذين كانوا وقتها عرضة للهزائم والابادة لن يقاوموه ، وتسلم القدس بعدما اعطى الى المدافعين عنها هدايا ثمينة ، وقدم قرابين من البخور والشموع عند القبر فوق جبل الجلجلة .

ولنعد الان الى اخبار حصار عرقة ، وفي وسط انشغال جيشنا هناك ، اتتنا كما قلنا اخبار تفيد ان بابا الاتراك (الخليفة العباسي) تتبعه قبائل كثيرة ، لانه كان من سلالة محمد (صلى الله عليه وسلم) كان في طريقه الى قتالنا ، فوضع الجيش في حالة تاهب للقتال ، وتم ارسال اسقف البارة الى غود فري وكونت فلاندرز ، وكانا في جبلة ، وهي حصن يطل على البحر قائم في منتصف الطريق بين عرقة وانطاكية ، وعلى مسيرة يومين تقريبا من كل منهما ، بيد اننا عرفنا انذاك ان الامر مجرد اقاويل زائفة اشاعها المسلمون وروجوا لها ليرهبونا فينالوا بعض الراحة اثناء الحصار ، وبعد تجمع الجيوش ، راح رجال حاشية الكونت يتباهون بخيولهم

وتوفرت لدينا المؤن لان الهدايا كانت ترسل الينا من القلاع والمدن الاخرى غير الجبلية ، زد على هذا قام بعض المسلمين بدافع الخوف او الحماس لطريقتنا في الحياة بالتنصر (كذا ؟) ونتيجة لهذا الثراء الجديد ، بعث كل واحد من امرائنا بالرسل والرسائل الى المدن الاسلامية يبلغها انه هو السيد بين الفرنجة ، وعلى هذه الصورة كان سوء سلوك امرائنا في ذلك الوقت وكان تانكرد من اكبر مثيري الشغب والفتنة ، ولعلكم تذكرون ان تانكرد كان قد تلقى خمسة آلاف صولدي وحصانين عربيين اصيلين وفاخرين ، من ريموند ، مقابل خدماته اثناء الرحلة الى القدس غير انه كان الآن يريد الانضمام الى قوات غودفري ، وهكذا دب النزاع بينه وبين ريموند ، واخيرا تخلى تانكرد بكل خسة عن الكونت.

الفصل الثاني عشر

رؤى ومحنة الحرب المقدسة

اعلنت في هذه الآونة رؤى كثيرة بعث الرب بها الينا ، وسأحكي أنا مصنف هذا الكتاب خبر الرؤيا التالية على عهدة الشخص الذي رآها حيث قال : « في اليوم الخامس من نيسان لعام ١٠٩٩ لتجسيد مولانا ، وبينما كنت أنا بطرس بارثلميو أستريح في بيعة الكونت اثناء حصار عرقة ، تفكرت في الكاهن الذي تجلى له الرب بالصليب في ايام حصار كريوغا ، ولما تساءلت لماذا لم يتجل لي على الصليب ، وفيما انا في هذا الحال رأيت فجأة الرب والرسولين : بطرس وأندروز مع شخص غريب ضخم الجثة ، قاتم البشرة واسع العينين أصلع تقريبا ، يدخلون البيعة ، وما لبث أن سألني الرب : ماذا تفعل ؟ فأجبت : انا واقف هنا ، فاستأنف الرب كلامه قائلا : لقد قهرتك الآثام الى حد كبير ، مثل الآخرين ولكن ما هي افكارك الآن ؟ فأجبت : يارب ، يا ايها الاب ، كنت أتفكر في الكاهن وبظهورك على الصليب له ، فقال الرب : انني اعرف ذلك ، وتابع يقول : امن انني انا الرب الذي مضيت في سبيله تحمل الصليب ، وانني تحملت الألام على الصليب في القدس ، من أجل خطاياكم ، واذا امنت بذلك فليسوف ترى .

ثم رأيت صليبيا مصنوعا من قطعتين من الخشب الأسود المستدير المصقول ، مركبا بشكل سيء ، باستثناء الوصلات المسننة التي تدعمه عند المنتصف ، وأمرني الرب قائلا : حذق بالصليب الذي تفتش عنه ، وعلى الصليب كان هناك الرب ممددا ومصلوبا ، تماما مثلما هو في الألام ، وكان بطرس يسنده من يمينه وأندروز يمسك بكتفيه من على شماله ، والغريب يسنده بيديه من خلفه .

وتابع الرب في اصدار توجيهاته قائلا : ابلغ شعبي بهذه الرؤيا هل ترى جراحي الخمسة ؟ مثل هذه الجراح، ليوقف الحجاج في خمسة صفوف ، وعلى الذين يقفون في الصف الاول الا يذشوا الرماح ولا السيوف ولا من أي نوع من المحن ، ان الذين مضوا الى القدس دون خشية من السيوف والرماح والفضوس والعصم يشبهونني ، انهم بحملهم للصليب يموتون من اجلي كما مت من اجلهم ، ونحن معا نسكن روحيا الواحد منا الآخر ، وعند موتهم سيجلسون على يمين الرب في المكان الذي جلست فيه بعد قيامي وصعودي ، اما الذين يقفون في الصف الثاني فهم مساعدون للذين في الصف الاول ، وهم قوة المؤخرة وهم ضمان ووقاية في حالة الفرار ويمكنني القول ان هذا الصف يشبه الرسل الذين تبعوني وشاركوني الطعام اما الذين في الصف فينكرونني - ان يعملون بالامداد فيمدون الذين يقاتلون بمختلف الاشياء مثل الحجارة والرماح - بالذين راحوا يضربون صدورهم ويصرخون في مواجهة الظلم عندما كنت معلقا على الصليب اعاني من الالام ، اما الذين في الصف الرابع ، الذين اغلقوا على انفسهم بيوتهم وانصرفوا للاهتمام بشؤونهم فقط لدى نشوب الحرب ، لا اعتقادهم ان النصر لا يكمن في قوتي انا بل في الحكمة البشرية ، هؤلاء يشبهون الذين صلبوني قائلين : انه يستحق الموت ، خذوه الى الصليب لانه يزعم انه ملك وانه ابن الله ، وعندما سمع الذين يقفون بالصف الخامس جلبه المعركة نظروا اليها من بعد ، وفتشوا عن اسبابها ، فأظهروا الجبن بدلا من الشجاعة ، ولم يقوموا بأدنى مخاطرة في سبيلي ، او في سبيل اخوانهم ، وفي الحقيقة انهم تحت قناع الحذر يدعون الذين يرغبون في خوض المعركة او على الاقل في تقديم السلاح ، ان يجلسوا فقط على الخيول ، انهم والحق اقول اشبه بالخونة : يهوذا والقاضم بونطايوس بيلاط .

وكان الرب معلقا على الصليب عاريا الا من خرقه مدلاة من خاصرته الى ركبتيه وهي ذات ظل اسود واحمر تحفه شرائط بيضاء وحمراء وخضراء ، واختفى بعد ذلك الصليب وبقي الرب بملايسه

السالفة ، فقلت له مولاي الرب ، انني اذا ما ابلغتهم بذلك فلن يصدقوني ، ورد الرب قائلاً : هل تريد معرفة المتشككين ، فأردفت قائلاً نعم انني بالفعل أريد ذلك ، وهنا امرني المسيح قائلاً : اطلب من الكونت أن يجمع القادة والعامّة معا ، ودعهم يصطفون كما لو كانوا في قتال أو حصار ، واطلب في الوقت المناسب من افضل المنادين أن يطلق صيحة الحرب : «عاوننا يارب» ثلاث مرات ، واطلب منهم أن يسعوا لاكمال التعبئة للقتال ، وعندها سترى كما قلت لك الصوف وستتعرف على المؤمنين والمتشككين .

ثم سألته : ما الذي علينا أن نفعله بالمتشككين ؟ فأجاب الرب : لا تظهروا لهم أدنى رحمة ، اقتلوهم انهم من الذين خانوني ، انهم أخوة يهوذا الأسخر يوطي ، ووزعوا ممتلكاتهم الدنيوية على الصف الأول وفقا لاحتياجاتهم ، وستجدون بهذا الصنيع الطريق القديم الذي كنتم حتى الآن تدورون حوله ، ومثلما تحققت نبوءات التجليات الأولى ستتتحقق هذه وبهذه المناسبة هل تعرف الجنس الذي أنظر اليه نظرة خاصة ؟ واجبته قائلاً : الجنس اليهودي، فقال الرب : انني احمل لهم عظيم الكراهية بصفتهم من الكفار ، واصنفهم مع احط الأجناس ، لهذا تأكدوا انكم لستم كفارا ، والا ستكونوا مع اليهود وسوف اختار شعبا اخر واحقق لهم وعودي التي وعدتكم بها .

ثم امرني الرب أن اتلو على مسامع الحجاج قوله : «لماذا تخشون من اقرار العدالة ، دعوني أسألكم ما الذي يفوق العدالة ؟ لذلك أريد منكم أن تقوموا بما يلي : عينوا قضاة بين الأسر والاقارب ، واذا اقترب انسان جرما في حق آخر ، فليسأله القاضي : ايها الأخ هل تحب أن تعامل مثل هذه المعاملة ؟ واذا ركب رأسه واستمر في عدوانه فليحكم القاضي عليه وفقا لما يقضيه القانون ، وبناء على ذلك ليشعر القاضي بحريته في أن يستولي على جميع ممتلكات المدعى عليه، فيعطي نصفها للمدعي ، ونصفها الأخر للسلطات ، واذا ما قال القاضي كلاما يحتمل وجهين وذلك لأي سبب من

السياب ، امض اليه واخبره انه اذا لم يصلح ذلك الأمر ، فلن
. عنه حتى يوم القيامة ، الا اذا حللته أنت ، هل تعرف كم هو
. من عبء ثقيل ؟ لقد امرت آدم الا يلمس شجرة المعرفة - أي
الخير والشر - فخالف أمري ، وهكذا مكث هو ونزيرته في قيود
التعاسة ، حتى قدمت على شكل انسان فان ، ففديتهم بصليبي
واقول لكم ان بعضكم ينبغي ان يأخذ من العشور لانهم أعطوا
حسبما امروا ، وسا كافنهم وأعطيتهم واجعلهم من المتفوقين .

وبعد كلام الرب طلبت منه ان يتعطف بقلبه فيعيد الي معرفة
الصلوات التي اخذت مني حديثا في انطاكية ، وسألني الرب
. الا تكفي معرفتك حتى تحكيها ؟ ومع هذا ارى انك تريد
معرفة المزيد ، واصبحت فجأة اثق بحسبكمتي ولم اطلب
المزيد ، فأجبت يكفيني ما اعرف ، ثم استأذنت الرب كلامه
قائلا . ما الذي اخبرتك به ؟ اجبني ، ووجدتني الآن لا احير جوابا
وعندما ألح علي حتى اردت كلماته اعترفت . يا رب انا لا اعرف
شيئا ، وربي علي الرب امض واحك ما تعرفه وسيكون ذلك كافيا .

وعندما القيت على مسامع الاخوان هذه الاشياء ، قال
بعضهم انهم لن يصدقوا ابدا ان الرب أجرى حوارا مع انسان
كهذا ، متغاضيا عن الأمراء والأساقفة ، و متجليا بنفسه لفلاح امي
جلف ، لا بل أكثر من هذا لقد تماردوا بعيدا حتى أخذوا يرمونه
بالشكوك حول الحربة المقدسة ، و بناء عليه جمعنا الذين ظهرت
الحربة من قبل امامهم ، ثم استدعينا ارنولف كاهن كونت نورماندي
الخاص وزعيم المتشككين بصحة الرؤيا ، مع انه كان يتمتع
باحترام كبير بسبب علمه ، ثم سألناه عن شكوكه

فأجاب انه يتشكك لأن الأسقف أدهم كان نفسه قد تشكك حول
حقيقة الحربة وأصالتها ، وهنا انبرى له الكاهن بطرس ديزيريوس
بقوله : رأيت أدهم بعد موته هو والمبارك نيقولاس ، وقال لي بعد
كلام : انني اقيم في الضيافة العلوية للقديس نيقولاس ، وكنت قد

أخذت الى الجحيم ، فأحرق شعر النصف الايمن من راسي مع نصف
لحيتي ، وذلك لأنني قد ترددت بالايمان بالحربة ، في حين كان علي
ان أقبلها أنا بالذات من دون الناس ، والآن على الرغم من انني
لست عرضة للعقاب ، انني لا أستطيع ان أرى الرب بوضوح حتى
يحصل النمو الكامل لشعري ولحيتي من جديد .

وتقدم كاهن اسمه ايبرار وقال : كنت قد ذهبت الى طرابلس قبل
الاستيلاء على أنطاكية بوقت قصير وهناك كنت أعيش حيا أرزق
عندما سمعت بحصار كربوغا للحجاج ، وعندما سمعت بهذه الأخبار
عرفت ان دخول أنطاكية والخروج منها بات أمرا مستحيلا ، كما
انني سمعت الكثير عن المصائب الحقيقية والوهمية التي روجتها
أقاويل المسلمين ، لهذا التجأت الى كنيسة خوفا من الردى
وارتميت أمام تمثال مريم العذراء ، وطلبت لعدة أيام بآئسولات
والدموع رحمة الرب متوسلا بشفاعتها ، وكنت صائما وواظبت على
التوسل بقولي : أيتها السيدة الفاضلة ان هؤلاء حجاج هجروا
أطفالهم وزوجاتهم وتخلوا عن ممتلكاتهم الدنيوية باسم المسيح ومن
أجلك ، وها هم الآن وقد ارتحلوا من أماكن نائية في سبيل ابنك
فأشفقي عليهم يا مولاتي ، وفكري في رأي ابنك ورأيك وفي
أراضيهم اذا أسلمتهم الى الأتراك .

ورحت أتمتم بهذه الكلمات وأتأوه المرة تلو الأخرى ، عندما جاء
مسيحي سوري وقال لي : توقف عن البكاء وابتهج ، ثم تابع يقول :
منذ أمد قصير وقفت أمام أبواب كنيسة مريم المباركة أم المسيح
وإذا أنا بكاهن بملابس بيضاء يتجلى لي ، وعندما سألته عن
اسمه وعن وطنه أجاب انني مرقس ، المبشر الانجيلي ، جئت للتو
من الاسكندرية ، وقد عرجت على هذا المكان بسبب كنيسة مريم
المباركة .

ثم سألته عن وجهته فأجابني : ان المسيح مقيم الآن في
أنطاكية ، وقد أمر حواريه بالانضمام اليه حتى يقدم يد المعونة في

أعرف التي لا بد أن يخوضها الفرنجة ضد الأتراك ، ثم ما لبثت أن

وعندما بقيت على حزني وشكّي ودموعي طمانني السوري نفسه بقوله : لا بد أن تفهم أنه مدون في انجيل بطرس المبارك أن الحشد المسيحي المقدّر له الاستيلاء على القدس ، سيحاصر أولا في أنطاكية ، ولن يخرج من الحصار الا بعد أن يجسد الحربة المقدسة ، ثم أيد ايبرار كلامه قائلا: اذا كان احد متشكك في هذا اشعلوا نارا للامتحان ، وسوف اعبرها باسم الرب دليلا على ذلك . تقدم كاهن آخر هوستن من فالنس ، وهو رجل محترم وطيب فأضاف الى هذه الشهادة قوله : لقد تحدث المسيح إلي في محنة من أشد المحن وبحضور امه مريم العذراء المباركة ووعد أنه في اليوم الخامس من هذا الحديث سيكون رحيما وينهي الام المسيحيين ، اذا عدوا اليه بكل قلوبهم ، وأعتقد أن الرب كان صادقا في كلمته ، لأن الحرب المقدسة اكتشفت في اليوم الخامس ، والآن اذا كنتم لا تصدقوني فانني أقول انني بعد هذه الرؤيا مباشرة عرضت على ادهم مباشرة كبرهان على صحة ذلك أن أخوض محنة النار أمام الجمهور أو ان اقفز اذا شاء من أعلى برج من الأبراج ، وأن اعرض عليكم الآن الشيء نفسه .

وزاد اسقف ايت قائمة شهودنا المتنامية ، فتقدم وشهد ان الرب فقط يعرف ما اذا كنت قد رايت ذلك في المنام ام لا ، لأنني لا اعرف بكل تأكيد ، ومهما يكن من امر لقد وقف أمامي رجل بثياب بيضاء وهو ممسك بيده بحربة الرب ، أقول هذه الحربة ، و سألني هل تعتقد أن هذه حربة الرب ؟ وأجبتة : بالتأكيد يا مولاي ، غير أنه لما بدا علي عدم الاقتناع طلب مني بخشونة اجابتيين اخريين فكررت : انني أومن أن هذه هي حربة الرب ، يسوع المسيح واختفى بالحال .

ثم اضفت انا - مؤلف هذا الكتاب - امام الاخوة والاسقف الى

هذه الشهادة : لقد كنت في كنيسة القديس بطرس عندما أخرجت الحربة من تحت الأرض ، وهناك عدد كبير آخر من الشهود على ذلك في الجيش ، ثم تابعت أقول ' هناك كاهن هو برتراند أوف لى بوي وكان عضو في أسرة أدهمر أثناء حياته ، وقد أصيب بمرض عضال في انطاكية ، وفي تلك الأثناء ظهر لبرتراند أدهممر ، وهرقل حامل رايته الذي أصيب بوجهه بسهم وقتل ، بعدما هاجم الأتراك بشجاعة في اشرس معركة دارت في انطاكية .

وهنا سأل أدهممر : ماذا تفعل يا برتراند ؟ فأجاب هرقل : ياسيدي انه مريض ، فأجاب الأسقف : انه مريض لأنه متشكك ، وهنا تمتم برتراند : انني يا سيدي لا أومن بحربة الرب مثلما أومن بالآم الرب ، فحذره أدهممر بقوله : ان هذا لا يكفي ، ينبغي أن تؤمن بأكثر من ذلك ، ومع ان الذي تلا ذلك خارج عن موضوعنا ، إنني سأدونه لأهميته ولنذعه للنين يستحقون .
عندما اضطر برتراند المريض المدنف إلى الجلوس امام أدهممر ومولاه هرقل رأى عندما جلس هناك جرح السهم المحرز الذي أنهى هموم أدهممر الدنيوية ، و هنا سألته برتراند لقد ظننا يا سيدي ان جرحك التأم ، ولكن ما هذا " فرد عليه هرقل هذا سؤال جيد ، إنني عندما جئت إلى الرب يسوع المسيح توسلت إليه أن يترك جرحي مفتوحا دون التئام ، ولم يكتف أدهممر وهرقل بإبلاغ برتراند هذا فقط بل اضافا اشياء أخرى لاتتعلق بهذه الرواية

وسلم أرنولف وامن بالحربة ، واعترف بعدما سمع بهذه الرؤيا وغيرها ، لا بل زاد على هذا بأن وعد أسقف البارة ، انه سيكفر عن تشككه تكفيرا علنيا ، غير انه عندما جاء في أحد الايام إلى اجتماع أعلن انه يؤمن كل الايمان بالحربة ، ومع هذا قال كلاما فيه بعض التورية وذلك عندما قال : إنه سيكفر فقط بعدما يتشاور مع سيده الكونت .

وإثار موقف أرنولف سخط بطرس بارتلميو ، وكان على حق لانه

كان رجل صدق وصراحة لهذا اندفع قائلا : إنني لا أتمنى فقط بل أتوسل إليك أن تشعل نارا ، وسأخوض محنة النار وفي يدي الحربة المقدسة ، فإذا كانت هي حربة الرب حقا فإنني سأخرج منها دون أن أكوى بالنار ، لكنها إذا كانت حربة زائفة فستهلكني النار ، وأنا حين أعرض تولي فعل ذلك لأنني أرى أنه ما من أحد يصدق الرؤى أو الشهود .

وارضى هذا الجمهور ، وحددنا موعد محنة النار في يوم الام الرب على الصليب من أجل خلاصنا ، وأمرنا بطرس بارتلميو بالصوم ، وبعد أربعة أيام ومسع بسزوع فجر الجمعة الحزينة (٨ نيسان ١٠٩٩) شرع باعداد كومة الأخشاب ، واكتملت بعد منتصف النهار ، واحتشد نحو من ستين الفامن النبلاء والعوام مع رجال الكنيسة وهم حفاة الأقدام يرتدون الثياب الكهنوتية ، ورسدت أغصان الزيتون الجافة في كومتين ارتفاعهما أربعة أقدام ، يفصل بينهما نحو قدم واحد ، ويبلغ طولهما ثلاثة عشر قدما .

وبعد اشعال النار ، وارتفاع لهيبها في الهواء أعلنت أنا ريمون دي جيل بحضور الحشد بأكمله : إذا كان الرب القادر على كل شيء قد تحدث إلى هذا الرجل شخصيا ، وإذا كان القديس أندروز قد كشف له الحربة المقدسة في صلاة العتمة ، فليمش وسط النار دون أن يمسسه أذى ، ولكن إذا كانت هذه أكنوبة فلتلتهم النار بطرس بارتلميو والحربة ، وركعت الحشود قائلة : أمين ، وارتفعت الحرارة اللافتحة ثلاثين ذراعا في الهواء ، ولم يستطع أحد الاقتراب منها .

ثم ركع بطرس بارتلميو على ركبتيه وهو يرتدي ثوبا كهنوتيا بسيطا بدون أكمام ، ركع أمام أسقف البارة ، وأشهد الرب على أنه قد رأى المسيح شخصيا على الصليب ، وتلقى منه التعليمات المذكورة أنفا ، وتلقى أيضا تعليمات وأوامر من القديس بطرس

والقديس أندروز ، وأن الأوامر التي بلغها باسم القديس بطرس .
او القديس أندروز او المسيح لم تكن من تأليفه ، واضاف قائلا إنه
إذا كان قد كذب فلن يخرج حيا من الكومة المشتعلة ، ودعا أن يغفر
الرب له على تطاوله على الرب وعلى جيرانه ، وأيضا على الأسقف
والمشاهدين لهذه المحنة ، وسلمه بعد ذلك الأسقف الحربة ، وركع
بطرس ورسم شارة الصليب ، ومشى داخل الكومة المشتعلة بكل
شجاعة ، ودون أن يخيفه شيء ، لقد سار في وسطها بتمهل ، وخرج
اخيرا ببركة الرب من وسط اللهب .

ويزعم حتى يومنا هذا بعض الشهود أنهم راوا الآية التالية : طار
طائر فوق رأس بطرس قبل أن يخرج من وسط النيران ، ودار ونزل
في النيران ، وشهد بذلك كل من ايبرار الذي نكرناه من قبل ، والذي
اقام في القدس من أجل الرب ، ووليم بونوفيليبوس ، وهو فارس
محترم ممتاز من أرليس ، وذكر وليم مالوس بوير ، وهو فارس
محترم من بيزيبه أن رجلا يرتدي الزي الكهنوتي مع ثوب القداس
فوق رأسه ، دخل اللهب قبل أن يدخل بطرس ، وذكر وليم أنه بدأ
يصرخ عندما لم يستطع أن يرى الرجل يخرج من النار لأنه أخطأ ،
وظنه بطرس بارثلميو ، واعتقد أن بطرس قد التهمته النيران .

وفي وسط الزحام الشديد كانت هناك أشياء كثيرة لم تشاهد
جميعها ، إنما كانت هناك تجليات وأحداث كثيرة نحن نعرفها بكل
تأكيد ، إنما لن نحكيها خوفا من اصابة القارئ بالملل ، فضلا عن
ذلك إن توفر ثلاثة من الشهود الواعين يعد كافيا للبت في جميع
الأحكام ، ومع هذا لن نهمل رواية ما يلي : بعدما عبر بطرس
النار ، راح الجمهور الذي أصيب بالخوف يتخطف الأغصان
المحترقة والفحم المتوهج حتى أنه لم يبق بعد وقت قصير إلا الأرض
التي اسودت من النيران ، وصنع الرب فيما بعد من خلال هذه
الأثار التي أمن بها الناس ، الكثير من الأعمال الجليلة .

لقد سار بطرس وسط النيران ولم يحترق ثوبه الكهنوتي ولا الحربة

المقدسة التي كانت ملفوفة بأغلى أنواع الأقمشة ، ولدى خروجه لوح للحمود ورفع الحربة وهتف قائلاً : يا رب ساعدنا ، وهنا أمسكت به الحمود ، أقول أمسكت به الحمود وجذبتة نحو الأرض ، وأخذ كل فرد - تقريباً - من الرعاع يدفع ويتدافع ظاناً أن بطرس على مقربة منه ويأمل في أن يلمسه أو يختطف قطعة من ثيابه ، وجرحه الرعاع ثلاثة جروح أو أربعة في ساقيه أثناء التزاحم ، كما كسروا عموده الفقري ، وأعتقد أن بطرس كان سيلقي حتفه هناك لولا أن ريموند بيليه ، وهو فارس مشهور وشجاع ، قام يساعده رفاق له كثيرون بمهاجمة الرعاع المتدافعين ، وجازف بحياته حتى انتزعه منهم ، غير أنه لا يمكننا كتابة المزيد بسبب حزننا واسمانا .

وبعد التنام جراح بطرس بقي حيث حمله ريموند بيليه ، وسألنا عن السبب الذي جعله يقف في النار ، فأجاب : لقد قابلني الرب في وسط اللهب ، وأمسك بيدي ، وقال لي : إنه بسبب شكوكك حول اكتشاف الحربة المقدسة أيام تجليات القديس أندروز ، إنك لن تعبر دون جروح ، إنما لن ترى الجحيم ، واختفى الرب بعد هذه الكلمات ، واستأنف بطرس كلامه قائلاً : هل تودون رؤية حروقي ، وكانت جراحه شديدة ، لكن الحروق التي على ساقيه فكانت تافهة .

ثم جمعنا المتشككين ليفحصوا وجهه ورأسه وشعره وأجزاء أخرى من جسده حتى يتأكدوا من صدق رؤياه - بطرس - التي تحمل من أجلها محنة النار ، وبعد رؤية وجهه وجسده مجد العديد الرب بهذه الكلمات : إن الرب الذي خلص هذا الرجل من هذه النيران الحامية ، النيران التي بلغ من حرارتها أننا اعتقدنا أن سهما لا يمكنه أن يمر منها دون أن يحترق تماماً ، يمكنه بكل تأكيد أن يكون حامياً لنا وسط سيوف المسلمين .

وبعد ذلك دعا بطرس ريمون دي جيل كاهن الكونت وسأله : لماذا أريدتني أن أخوض محنة النار لأثبت رؤيائي للحربة المقدسة وأوامر الرب ؟ لاشك أنني أعرف أفكارك المشوشة ، وعندما أنكر ريمون

هذه الظنون ، أفحمه بطرس بقوله : إنك لا تستطيع انكار الدليل التالي ، لأنه دامخ ، فقد عرفت الحقيقة ذات ليلة من مريم العذراء وادهمر ، لقد تملكتنني الدهشة عندما عرفت أنك على الرغم من أنه لم يكن لديك أدنى شك في كلمات الرب وكلمات رسله ، لقد تمزيت موتي وأنا أحاول إقامة الدليل على صحة هذه الرؤى نفسها .

وبعدما كشف بطرس أكاذيب ريمون وذنبه أمام الرب ، بكى ريمون دي جيل بحرقه الألم ، لكن بطرس واسماه بقوله : لا أريدك أن تحزن ، لأن مريم العذراء المباركة وأندروز المبارك سيحصلان لك على الغفران ، أمام الرب ، إذا أنت صليت ودعوة لهما بحرارة .

الفصل الثالث عشر

رفع الحصار عن عرقة واستئناف الرحلة إلى القدس

مزقت النزاعات في هذه الأونة صفوف الجيش ، لكن الرب ، ربنا ومرشدنا رتق هذه النزاعات حتى لاتضيع نعمه ، وعندما عرف حاكم طرابلس ، وهي مدينة قريبة من مخيمنا ، بأمر النزاعات ، استخف بنا حين طلب مبعوثونا الجزية منه ، وقال : من هم الفرنجة حتى أخشاهم وماقيمة فرسانهم وماهي مدى قوتهم ، فكروا بالأمر ، لقد حاصر جيش الفرنجة عرقة ثلاثة أشهر ، ومع أنني لاأبعد عنهم أكثر من أربعة فراسخ ، لم يقع منهم هجوم واحد علي ، ولم أشهد رجلا مسلحا منهم ، أيها الفرنجة ازحفوا إلى طرابلس وادعونا نراكم ونختبر فرسانكم ، لماذا علي دفع الجزية إلى وجوه لم أرها وإلى قوة لم أعرفها .

وأثار هذا الجواب الشكوى العامة وتسائل الجميع : انظروا ماذا جنينا من النزاعات والمشاحنات ، لقد احتجب الرب عنا من جديد ، وبتنا موضع ازدياء ، ووحدت هذه المشاعر الأمراء فأمرؤا أسقف البارة مع قسم من الجيش القيام بحراسة المخيم ، في حين يقوم الفرسان والرجالة يتقدمهم الأمراء ، بالزحف وهم على تعبئة ضد تحصينات طرابلس ومهاجمتها ، وعندما زحف جيشنا بتشكيلته القتالية المحددة خرج في الوقت نفسه أهل طرابلس وهم على ثقة بحشودهم الصاخبة ، خرجوا على تعبئة للتصدي لنا ، وكان هناك سور قوي ومرتفع جدا ومجرى مائي يمضي إلى طرابلس ، وقد شكل طريقا ضيقا بين المدينة والبحر الذي يحيط بطرابلس من جهات ثلاث .

وحصن المسلمون هذا السور حول المجرى المائي ، حتى صار بإمكانهم التراجع إلى الورا في حال الاخفاق أو أن يمضوا إلى الامام كما لو كانوا يمرون من حصن إلى حصن ، وعندما رأى الحجاج منظر أهالي طرابلس ، وهم واثقون بموقعهم القتالي وبأسلحتهم ، ابتهلوا جميعا فرسانا ورجالة إلى الرب ، ولوحوا برماحهم واحتشدوا جميعا وجاء زحفهم نحو صفوف العدو أشبه بموكب ، بحيث لو أنك شهدت ذلك الزحف لخيّل إليك أنهم كانوا يتقدمون بمثابة أصدقاء لأعداء ، وألقى الرب الرعب في صفوف قوات طرابلس ، وهربت هذه القوات من أول ضربة وامتلات الأرض بدم المسلمين وسدت جثثهم مجرى الماء ، وكان مشهدا بهيجا رؤية المياه المتدفقة بالمجرى وهي تقذف بجثث السادة والعوام إلى طرابلس وقد فقدت رؤوسها ، ولقد فقدنا رجلا أو رجلين بينما يقال قتل سبعمائة من الأتراك .

وبعد هذا النصر عاد قانتنا إلى عرقة وصرخوا : لقد رأنا حاكم طرابلس اليوم ، ورأينا نحن بدورنا الطرق إلى طرابلس ، ودرسنا سبل الهجوم ، وإذا وافقتم الآن دعونا نجعل صاحب طرابلس يتعرف غدا إلى معدن رجالنا حقا ، وهكذا لم يتجرأ شخص واحد على الخروج من طرابلس عند عوبتنا إليها في اليوم التالي ، وإثر ذلك عرض صاحب طرابلس على أمرائنا أن يدفع لهم خمسة عشر ألف قطعة ذهبية ، مع كميات من المؤن والملابس والخيول والبغال ووعد بتأمين سوق عامة مفتوحة ، وأن يعيد إلينا جميع الأسرى المسيحيين إذا ما تخلينا عن حصار عرقة .

ووصل آنذاك رسل من الإمبراطور الكسيوس إلى المخيم يحملون احتجاجا على استيلاء بوهيموند على أنطاكية خلافا للعهد التي قطعت للإمبراطور ، وسأوقف روايتي هنا لأنكر أن بوهيموند بات الآن يحتل أنطاكية لوحده لأنه تولى طرد أتباع ريموند بكل عنف من الأبراج التي كانوا يتولون حراستها ، وفعل ذلك عندما علم أن الكونت قد غادر معرة النعمان إلى داخل سورية ، هذا وذكر المبعوث

البيزنطي أن الكسيوس سيقدم لنا مبالغ كبيرة من الذهب والفضة ، وأن على الفرنجة انتظاره حتى يوم عيد القديس يوحنا (أواخر حزيران) حتى يتمكن من السير معهم إلى القدس ، ومما هو جدير بالذكر أن عيد الفصح كان يقترب في ذلك الوقت .

وارتأى كثيرون كان منهم كونت صنجيل تاجيل الزحف ، وقالوا : لنؤجل زحفنا حتى يصل الكسيوس ، فنحصل على منحه ، ثم إن وجوده سيوفر التجارة برا وبحرا ، ويمكننا أن نتوحد تحت قيادته ، وأنداك ستلقى المدن جميعا أسلحتها وسيتملكها الكسيوس أو يخربها حسبما يشاء ، وهناك أيضا احتمال كبير أن الحجاج ، الذين أجهتتهم الخلافات الطويلة والمستمرة سيؤثرون ، إذا وصلوا إلى القدس ، العودة إلى ديارهم فور رؤية أسوارها ، لذلك فكروا بكل عناية في عدد المخاطر الكامنة في مواجهة الذين يتوقون إلى الوفاء بنذرهم ، ولنشدد الحصار على عرقة حتى تستسلم حاميتها في خلال شهر ، أو يتم أخذها بالقوة ، ولنتذكر أننا إذا ما قررنا عدم جدوى الحصار ، وانتشرت بعيدا أخبار تخلينا عن متابعته ، سنصبح ونحن الجيش الذي عرف بتنفيذه لمشروعاته بنجاح ، موضع سخرية واستهزاء .

وحاجج آخرون ضد هذه الآراء وقالوا : لقد ألحق الأمبراطور الضرر بنا يوما ، وتآمر علينا ولما أدرك أنه ضعيف ، وأننا أقوياء بفضل الرب ، سعى إلى إبعادنا عن القبر المقدس ، خشية أن يؤدي الحديث عن نجاحنا إلى أن يحزن آخرون حزنونا ، وليحزن الذين أساء الأمبراطور إليهم بالقول أو بالفعل من أن يتقوا به ، فمثل هذه الثقة لا طائل تحتها ، وماعلينا الآن إلا أن نستأنف زحفنا نحو القدس ، ولنضع ثقتنا بقائنا المسيح الذي نجانا من المخاطر التي أشعرتنا باليأس ، وحمانا من أعمال الكسيوس وخداعه ، وسنحقق عندها أحلامنا بكل سهولة بوعده الرب ، ولدى سماعه بأخبار استيلائنا على القدس ، وتوفر التجارة المفتوحة ، سيرد على ذلك بأعمال مجدية وهدايا بدلا من الكلمات البراقة .

ووافقت الاكثرية من بين الحجاج على الرأي الاخير هذا ، غير أن رغباتهم تعارضت مع رغبات مجلس الامراء وتوفرت لهذا بعض المصاعب ، وثارت المصاعب وتفجرت بسبب حاشية الكونت ريموند حيث كانت ضخمة ثم لانه كان قد واجه الموت بكل شجاعة بون أن يكون معه القادة الآخرون ، ولهذا أيضا حقق الكثير من المكاسب الخاصة به .

ويشأن هذه المحنة أعلننا للناس ضرورة الصوم والصدقات على أمل أن يتعطف الرب القادر على كل شيء ، والذي أخذ بأيدينا عبر بلاد كثيرة ، فيبلغنا الآن مشيئته ، وهكذا أقنعت صلوات المؤمنين الرب ، فقد تجلى الأسقف أدهم إلى ستيفن أوف فالنس ، الذي ذكرناه من قبل لدى الحديث عن رؤياه للرب على الصليب ، وضربه أدهم بقضيب عندما كان عائدا يمشي في طريقه إلى البيت ، وكان هذا ذات ليلة من الليالي وقد ناداه : يا ستيفن ، فرد عليه ستيفن : مولاي ، وعندما انعطفت تعرف على أدهم ، فسأله أدهم : لماذا تجاهلت عدة مرات أوامري المتعلقة بصليب الرب ، مع أوامر أمنا مريم العذراء ، إنني أتحدث عن الصليب الذي كان في الصفوف الامامية لقواتي ، ليحمل هذا الصليب في الجيش ، والآن أخبرني أي أثر ديني هو أفضل من الصليب ، ألم يرشدكم هذا الصليب إلى الحربة المقدسة وينفعكم بما فيه الكفاية ، إن سيدتنا مريم العذراء تقول لكم الآن : إنه بدون هذا الصليب لن تكون لديكم رحمة .

وهنا صاح ستيفن : أه يا أعظم الأسياذ ، أين هي مريم المباركة ؟ وكشف أدهم بالحال عن مريم رائعة الشكل والملبس ، وهي واقفة على نحو تسعة أذرع أو عشرة مع أجانا المباركة ، وعذراء ممسكة بشمعتين ، وهنا تكلم ستيفن مع أدهم ، الذي كان يقف إلى جوار مريم وقال : ياسيدي إن الاشاعات في الجيش كثيرة ، ومن بينها أن شعرك ولحيتك قد احترقا في الجحيم ، وغير ذلك من القصص التي من الصعب تصديقها ، يضاف إلى هذا إنني

أتضرع إليك وأتوسل أن تعطيني واحدة من الشموع لأحملها ليلًا على أوامرك وأعطيتها إلى الكونت .

فأجابه أدهم : حلق بوجهي ، الا تراه محترقا ، ثم خطا الأسقف نحو مريم العذراء وعندما عرف قرارها عاد إلى ستيفن وقال له : لا يمكن تلبية رغبتك ، لكن الخاتم الذي في إصبعك لافائدة لك منه ، فلا تلبسه ، واذهب إلى ريموند وقدمه إليه وأخبره أن العذراء المقدسة كثيرا ، تبعث إليك بهذا الخاتم ، وفي ساعة كل إخفاق تذكر في ذهنك السيدة مانحة هذا الخاتم ، وتوسل إليها وسيساعدك الرب .

واستفسر ستيفن مجددا عن الأوامر المتعلقة بأخيه ، وأجابه أدهم : دعه يقنع الأسقف المنتخب ليقوم بثلاثة قداسات للرب ولأرواح النا ، وتأمرا منا مريم الا تظهر الحربة المقدسة بعد ذلك إلا ويحملها كاهن يرتدي الملابس المقدسة ، وأن يتقدمها الصليب على النحو التالي : وأمسك أدهم الصليب معلقا على رمح ، وتبعه رجل يرتدي الثياب الكهنوتية والحربة المقدسة بيده ، وكان الأسقف يردد ساعتئذ : « أيتها العذراء مريم أبدي الهراطقة بذاتك و أزيلهم » واشتركت مئات الألوف من الأصوات لابل مالا حصر له في جوقة المرتلين السماوية ، ثم اختلت جماعة القديسين .

وفي الصباح التالي كان أول ماسأل عنه ستيفن هو عما إذا كانت الحربة ماتزال لدينا ، وعندما رآها انفجر باكيا ، وشرع يحكي الرؤيا السالفة وما رآه وسمعه ، وتأثر الكونت بذلك ، فأرسل وليم هيو أوف مونتيل أخو أسقف لى بوي إلى اللانزية حيث كان قد ترك صليب أدهم وقلنسوته .

وفي تلك الآونة استدعى بطرس بارثلميو - الذي كان قد أقعده المرض الناجم عن الكدمات والجروح التي لحقت به - إليه الكونت مع القادة الآخرين وقال لهم : لقد دنا الموت مني ، وأنا على يقين

تام أنني سأحاسب في حضرة الرب على كل عمالي ، أو كلماتي أو افكاري الشريرة ، وأشهد الرب بحضوركم أنني لم أخترع أي شيء بخصوص جميع الأشياء التي أبلغتكم عنها على أنها من عند الرب والرسل ، ولا أرتاب مطلقاً أنكم سترون تحقق كلماتي إذا ما خدمتم الرب بصدق ، وإثر هذا مات بطرس في الساعة التي حددها الرب ، مات بسلام وبفن في البقعة التي عبر فيها النار وهو يحمل الصلبة المقدسة .

وفي تلك الاثناء سأل ريموند وكذلك فعل أمراء الجيش الآخرون - أهالي المنطقة عن أفضل الطرق إلى القدس وأقلها وعورة ، ولهذا قدم إلينا بعض السوريين ، وسأستغل قدومهم لأحكي أنه ما برح قرابة الستين ألفاً من المسيحيين يمتلكون جبال لبنان والأحواز المحيطة به لسنوات مديدة ويطلق على هؤلاء المسيحيين اسم الصوريين لجاورتهم لمدينة صور ، لكن بعدما زانت قوة المسلمين والأتراك ، وكان ذلك بإرادة الرب ، أرغموا العديد من الصوريين الواقعين منذ أربعمئة سنة أو أكثر تحت نيرهم على التخلي عن بلادهم وعقيبتهم المسيحية .

بيد أنه إذا كان بعضهم قد تحدى المسلمين بفضل الرب وعونه ، فقد أرغموا على تسليم أطفالهم حتى يتم ختانهم وتعليمهم القرآن ، وتجاوز الأمر هذا الحد حيث كان الآباء يتعرضون للقتل وتلقى الأمهات معاملة مشينة بانتزاع أطفالهن من أحضانهن ، ولقد دفعت النوازع الشريرة الملتهبة هذا الجنس من البشر إلى هدم كنائس الرب والقديسين ، وتحطيم الأيقونات ، وثقب أعين الصور التي لا يمكن تحطيمها ، واستخدام التماثيل هدفاً لنبالهم ، وقلبوا الهياكل وحولوا الكنائس الكبيرة إلى مساجد ، وكان إذا ما رغب مسيحي ما في اقتناء صورة للرب أو لقديس في بيته ، فقد ترتب دفع ثمن لذلك شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام ، وإلا كان سيرى هذه الصورة وقد ألقيت بالوحد وحطمت ، وما أسأرويه الآن غير مفرح بالبتة ، فقد

وضعوا شبابهم بالمواخير ، والزموا فتياتهم بتقديم الخمر من أجل المزيد من الفسق .

وكانت الأمهات يخشين البكاء من ذلك أو غيره من الآلام علنا ، لكن لماذا أبعد هذا الوقت كله على السوريين ، فمن المؤكد أن هذا الجنس قد تأمر على قدس الأقداس وعلى تراثه ، ولولا أن الرب قد لجم بأمره ومبارته الحيوانات المتوحشة عن شرور مماثلة ، مثلما فعل مرة مع جنونا ، لقدر للفرنجة أن يلاقوا مصائب السوريين ، ويكفي هذا لتغطية الموضوع .

وفي اجتماع مع ريموند صنجيل سئل السوريون الذين أشرت إليهم من قبل عن الطريق ، فأجابوا : إن طريق دمشق ممهد وفيه ما يكفي من المؤن ، لكن لأماء به لمدة يومين ، والطريق من خلال جبال لبنان مأمون وتتوفر به الضروريات ، لكنه وعر جدا بالنسبة للجمال ولدواب الحمولة ، ومع ذلك هناك طريق آخر محاذ للبحر ، غير أن به بعض المنافذ الضيقة جدا ، إلى حد أن خمسين أو مائة من المسلمين يمكنهم صد هذا الحشد البشري كله ، ومع هذا إنه مدون في إنجيلنا لبطرس المبارك إنه إذا كنتم أنتم الذين قدر لهم الاستيلاء على القدس ، فإنكم ستسيرون بحذاء ساحل البحر ، على الرغم من أن مخاطره تجعله يبدو مستحيلا ، وهذا الانجيل الذي كتب بيننا لا يتضمن اختياركم للطرق فقط ، بل الكثير من أعمالكم المتقدمة ومسار الأحداث المقبلة .

وفي أثناء تبادل الآراء هذه عاد وليم هيو أوف مونتيل بالصليب السالف الذكر ، وأشارت رؤية الصليب مشاعر حاشية الكونت بخصوص الرحلة حتى أنه خلافا لرأي ريموند وأمراء آخرين أحرق هؤلاء ملاجئهم وكانوا أول من غادر عرقة

وانفجر ريموند باكيا ، وأخذ يزدري نفسه والآخرين ، لكن الرب اغفل مشاعره مراعاة لارادة جمهور الحجاج ، هذا وراح من جانب

آخر غوبفري - الذي كان تواقا الى استئناف الزحف يحرص الناس ، وهكذا وصلنا - بعدما تخلينا عن هذا الحصار الكريه والمقوت لعرقه - الى طرابلس حيث حاول ريموند - على الرغم من مواجهته للمعارضة الجماعية للقادة - أن يغيرهم بمختلف السبل بالتوسلات والمكافآت بحصار طرابلس .

وهنا تجلى القديس أندروز الى بطرس نيزيد يريوس - وهو رجل كنا قد ذكرناه من قبل - وأمره بقوله : إذهب وأبلغ الكونت وقل له : توقف عن ازعاج نفسك وازعاج الآخرين لأنك لا يمكن لك توقع أي مساعدة من الرب حتى يتم الاستيلاء على القدس أولا ، ولا تنزعج لعدم اكتمال حصار عرقه ، ولا تحمل هما اذا لم تسقط هي ومدن أخرى على الطريق ، وفي الحقيقة هناك معركة وشيكة سيتم اثرها الاستيلاء على هذه المدينة ومدن أخرى ، لهذا أقطع عن ارباك نفسك مع أتباعك ، وجد باسم الرب وأعط بسخاء من عطاياك لك ، وكن أيضا رفيقا وصديقا مخلصا لرجالك وسيعطيك الرب القدس والاسكندرية والقاهرة اذا فعلت ذلك ، ولكنك اذا لم تفعل هذا فانك لن تحصل على الجوائز التي وعد الرب بها ، ولن يكون لك ثروة حتى تكون في عوز لا مفر منه .

وخضع الكونت لهذه الكلمات التي تفوه بها الكاهن لكنه كان خضوعا باللسان فقط ، ذلك أنه تجاهلها بأعماله وأنكرها بتقديره بالكنوز الهائلة التي استحوز عليها من صاحب طرابلس ، زد على هذا فقد أثار غضب أتباعه بالشتم والتعنيف ، وقد حكى بطرس نيزيد يريوس تلك مع مسائل أخرى كثيرة ، نأتي على ذكر بعضها في هذا الكتاب .

فقد قدم الي بطرس نيزيد يريوس أناريمون دي جيل ، قبل ذلك بوقت طويل ، عندما كنا نفكر بمغادرة أنطاكية ، وأخبرني أنه رأى رؤيا أتى فيها شخص وأمره بقوله : اذهب الى كنيسة ليونتيوس المبارك حيث ستجد آثار أربعة قديسين ، فخذها واحملها الى

القدس ، ومضى الشخص معه وأراه الآثار ومكانها ، وأخبره بأسماء القديسين ، ومع ذلك تشكك بطرس بالرؤيا بعد أن استيقظ وصلى وتوسل الى الرب أن يؤكد له مرة ثانية أن ذلك كان وحيا منه ، وهكذا ظهر القديس نفسه مرة أخرى ، وتهدده لاهماله أوامر الرب ، وقال : إنه اذا لم يتم نقل البقايا قبل اليوم الخامس من الأسبوع ، فستلحق به مضر كبيرة هو وسيده ايزوارد كونت أوف داي ، وهو رجل مخلص للرب بنوره وحكمته وببركته التي نفعتنا .

وقد رددت هذه القصة على مسامع أسقف أورانج وريموند صنجيل وآخرين بعدما حكاها لي بطرس ، وتوجهنا بعد ذلك مباشرة الى كنيسة ليوننتيوس ونحن نحمل الشموع ، التي قدمناها مع النذر للرب وللقديسين في الكنيسة نفسها ، وسألنا الرب الذي جعل هذه الآثار مقدسة ، أن يحددها لنا لتكون رفيقا لنا وعونا ، وسيكون هؤلاء القديسون مرتبطين بنا بدلا من ازدياء زمالة الحجاج ، ومن نفاهم الرب ، وسيكون ارتباطهم هذا بدافع من الحب المسيحي ، وهكذا يربطوننا بالرب ، وأتينا في الصباح التالي بصحبة بطرس ليزيد يريوس الى مكان آثار القديسين ، وحسبما روي من قبل تماما وجدنا بقايا القديس كيبريان والقديس أوميخيوس ، والقديس ليوننتيوس والقديس يوحنا الذهبي الفم ، كما وجدنا هناك أيضا خزانة بها آثار لم يتعرف عليها الكاهن ، وعندما سألنا السكان المحليين اختلفوا في تعريفها ، فقال بعضهم إنها للقديس مركوريوس ، بينما نكر آخرون أسماء قديسين آخرين ، وبغض النظر عن غموض أمرها ، لقد أراد ليزيد يريوس جمعها ووضعها مع الآثار الأخرى .

فقلت أناريمون دي جيل بكل قوة وأمام الجميع : إنه اذا رغب هذا القديس في الذهاب معنا الى القدس فليعلن اسمه وليبين رغبته وإلا فسيتبقى في هذا الصندوق ، ليس علينا أن نزيد من أعبائنا بحمل هذه العظام المجهولة ، ونتيجة لموقفنا هذا تركنا العظام التي لم يتعرف عليها أحد في ذلك الوقت .

وفي الليلة التالية لجمع الكاهن للبقايا الأخرى ولفها بالاقمشة وتغطيتها ، وقف أمامه شاب وسيم في حوالي الخامسة عشرة من عمره ، أثناء صلاة العتمة وسأله : لماذا لم تحمل رفاتي مع الآخرين هذا اليوم ؟ وهنا سأله الكاهن : ومن أنت ؟ فرد عليه الشاب متسائلا : ألا تعرف اسم حامل راية هذا الجيش ؟ واعترف بطرس بجهله قائلا : لا يا سيدي ، وعندما كرر بطرس الاجابة نفسها عنفه الشاب بقوله : أخبرني بالحقيقة ، وهنا اجابه بطرس : يقال يا سيدي إن القديس جرجس هو حامل راية هذا الجيش ، وهنا قال الشاب : صحيح الذي تقوله ، إنني أنا القديس جرجس وأنا أمرك أن تجمع رفاتي وتضعها مع آثار الآخرين

ومع هذا لم ينفذ الكاهن الأمر ، ومرت الأيام فعاد القديس جرجس اليه وطلب منه بغلظة : لا تدع الصباح يمر بون أن تجمع رفاتي وخذ أيضا زجاجة من دم مريم العذراء والشهيدة تقلا ، وستجدهما بالقرب ، ورتل القداس ، ووجد بطرس نيزيد يريوس هذه المرة هذه الأشياء جميعا ونفذ أوامر القديس جرجس .

وقبل أن أتابع رواية قصتنا مفيد أن أذكر خبر الرجال الذين تجرأوا وأبحروا على سطح البحر المتوسط الشاسع الغريب ، وعبروا المحيط حبا بالقيام برحلة الحج تحت راية الصليب ، فعندما سمع هؤلاء الانكليز بأخبار الحملات تحت راية الصليب التي تشن باسم انتقام الرب من الذين دنسوا الأرض التي ولد فيها المسيح ورسله أبحروا في البحر الانكليزي ، وداروا حول سواحل اسبانيا ، وبعد جهود جبارة وصلوا الى ساحل أنطاكية واللانقية قبل وصول جيشنا ، وقد أمن الانكليز لنا مع الجنوبية سبل التجارة مع قبرص و الجزر الأخرى ، فاثبتوا بذلك فائدتهم ومعونتهم ، وكانت هذه السفن تبحر يوميا وتمخر عباب البحر ذهابا وايابا فتبث الرعب في قلوب المسلمين وتجعل ابحار السفن الاغريقية أمرا ميسورا ، فضلا عن هذا عندما رأنا الانكليز ننطلق نحو القدس ، وراوا خشب السرو المصنعة منه سفنهم يتأكل ويتعفن لطول عهده حتى لم يبق من

الثلاثين سفينة غير تسع سفن ، عندما رأوا هذا هجر بعضهم السفن ونزلوا الى الشاطئ ، في حين أحرق آخرون قواربهم وياندروا بالانضمام الى الزحف ضد القدس .

وتعمل أمراؤنا أمام طرابلس حتى غرس الرب في قلوبهم الرغبة في مواصلة الرحلة بحيث زالت كل معارضة ، وتحركنا على خلاف عاداتنا وأوامر الأمراء ليلا ، وسرنا طوال الليل فوصلنا الى بيروت في اليوم التالي ، وبعد أن استولت طليعتنا فجأة على « مرتقى صور » وصلنا الى عكا بون أن يعترض سبيلنا معترض وأنجز ذلك خلال أيام قليلة ، وخاف حاكم عكا من الحصار ، وانتظر بفارغ الصبر رحيلنا وأقسم لريموند على أنه سوف يسلم نفسه وعكا لحملة الصليب اذا ما استولينا على القدس ، أو بقينا في فلسطين لمدة عشرين يوما بون أن نضطر الى الاشتباك مع ملك مصر ، أو اذا هزمنا هذا الملك ، ووعده حاكم عكا أنه سيقدم في تلك الاثناء صداقته ، ورحلنا بعد ذلك من عكا ، وكان ذلك في مساء أحد الأيام وعسكرنا على مقربة من المستنقعات المجاورة .

قصة الطائر الذي حمل رسائل بقتل حملة الصليب :

وحسبما جرت العادة في تلك الاثناء ، راح بعضنا يجري هنا وهناك بحثا عن بعض الضروريات وبعضنا كان يبحث عن خيام أصدقائه ، وفيما نحن كذلك ألقى صقر طار فوق المعسكر بطائر مصاب بجرح قاتل في المعسكر الذي كان يعيش ساعتئذ في لغط وضوضاء ، وعندما التقط أسقف ابي الطائر وجده يحمل رسالة تقول : « التحيات من صاحب عكا الى أمير قيسارية ، لقد اجتاح بلادي جيل من الكلاب ، من جنس أحقق فوضوي عنيد ، فاذا كنت حريصا على سلامتك فيمكنك أنت والمسلمين الآخرين الحاق الأذى بهم ، وطالما يمكنك فعل ما تريد بيسر ، انقل هذه الرسالة الى المدن

والحصون الأخرى ، ، وفي الصباح عندما انتظم الجيش وكان في حالة استرخاء نشرت محتويات الرسالة ، وبذلك تجلى لنا عطف الرب ، وهو عطف منع الطيور الطائرة من الحاق الأضرار بنا وكشف لنا أسرار عدونا .

فحمدنا الرب القادر ومجدناه على كل شيء ، ثم رحلنا بلا وجل بكل خفة و نشاط ، وكنا نسير في أرتال امتبنت من الأمام الى الخلف ، و عندما سمع سكان الرملة المسلمون أنباء عبورنا لنهر قريب ، تخلوا عن قلاعهم و أسلحتهم مع كثير من الحبوب في الحقول و محاصيل محصودة ، و هكذا عندما وصلنا في اليوم التالي كنا على يقين أن الرب كان يحارب من أجلنا ، و نذرنا هنا النذور للقديس جرجس قائدنا المعترف به ، و قرر قابتنا و الجمهور اختيار أسقف (لمدينتي اللد و الرملة) كما وشعرنا أن القديس جرجس سيكون شفيعنا عند الرب ، وسيكون قائدنا المخلص من خلال موطنه .

وبما أن الرملة تبعد قرابة خمسة عشر ميلا عن القدس ، فقد عقدنا مؤتمرا هناك ، وفيه قال بعضهم : أجلوا الزحف الآن ، وتحولوا نحو مصر ، فاذا استطعنا بفضل الرب الاستيلاء على مملكة مصر فاننا لن نربح القدس فحسب بل القاهرة والاسكندرية أيضا مع ممالك أخرى كثيرة ، ومن جانب آخر اذا ما زحفنا على القدس ثم تخلينا عن الحصار لشح المياه فاننا لن ننجح أبدا .

وقال بعضهم الآخر : على الرغم من أن قواتنا تكاد لا تبلغ ألفا وخمسمائة من الفرسان مع عدد ضئيل من الرجالة المسلمين ، فإن هناك من يفضل القيام بحملة الى أرض غريبة ونائية تعزلنا عن مساعدة بني جلدتنا ، وبناء عليه إن الفرص هنا قليلة في الاحتفاظ بأي مدينة يتم الاستيلاء عليها ، أو استحواذ طريق للفرار عند الحاجة ، وبما أنه ليس في هذا أي فائدة علينا التمسك بطريقنا وليتول الرب شؤون الحصار والعطش والجوع والأمور الأخرى .

الفصل الرابع عشر

حصار مدينة القدس والاستيلاء عليها

ووضعنا اثقالنا على ظهور جمالنا وثيراننا ودواب الحمولة الاخرى ثم اندفعنا نؤم القدس ، بعد ما حصلنا على الأذن من الأسقف الذي تركنا معه حامية ، وفي اندفاعنا الجنوني بسبب الطمع بالاستيلاء على القلاع والبيوت ذات الحدائق ، لم نتذكر ولم نعبأ بوصايا بارثلميو واوامره بالانقرب من القدس ، عندما نكون منها على مسافة فرسخين ، الا ونحن حفاة الاقدام ، وكان من التقاليد المتبعة عدم الاستيلاء من قبل اي منا على اية قلعة او مدينة ترفع واحدا من اعلامنا ، او بعد ما يكون واحد منا وضع يده عليها ، وهكذا دفع الطموح العديد منا الى الخروج ليلا من فراشهم في منتصف الليل دون ان يصحبهم رفاقهم للاستيلاء على القلاع الجبلية والمنازل التي تحيط بها الحدائق في سهل الاردن ، ومع هذا فان قلعة حافظت على امر الرب والتزمت به فسارت حفاة الاقدام ، وكان هؤلاء يعبرون عن الأسى والأسف بتنهيدات عميقة الى الرب ، بسبب الخروج على ارادته ، ولم يتذكروا صديقا ولا رفيقا واحدا ممن سار في طريق الباطل : ولدى الاقتراب من القدس بزحفنا العام الارعن ضرب اهل المدينة طلائعنا ، واصابوا خيولنا بجراح شديدة ، كما اصابوا عددا كبيرا من رجالنا وقتلوا ثلاثة او اربعة من بين صفوفنا .

واذا ما تحولنا نحو الحديث عن الحصار يلاحظ ان غودفري وكونت فلاندرز وكونت نورماندي عسكروا الى الشمال ، وضربوا الحصار حول للقدس من كنيسة القديس ستيفن التي تقع في الوسط الى البرج الذي يقع في الزاوية مجاورا لبرج داود . وعسكر ريموند مع جيشه في الغرب ، وحاصر المدينة شروعا من خط الدوق حتى سفتح

جبل صهيون ، ومع ذلك قام واد عميق بين معسكره والاسوار ، حال دون سهولة الاقتراب من المدينة ، وكان سببا في ان يرغب بتغيير معسكره وموقعه ، وفيما يقوم ريموند بحصار القدس ، توقف لزيارة كنيسة جبل صهيون ، حيث سمع عن معجزات الرب هناك ، وقد تأثر كثيرا ، الى حد انه خاطب الأمراء والحضور بقوله : ما الذي سيحدث لنا لو اننا تخلينا عن هذه المنح المقدسة ، واستولى عليها المسلمون ، لربما كانوا دنسوها او حطموها لكرهيتهم للصليبيين ؟ ومن يدري اوليس من الممكن ان تكون هذه المنح من الرب اختبارا لمعرفة مدى حبناله ؟ انني اعرف ان الاخفاق في حراسة كنيسة جبل صهيون بحماس سيجعل الرب يقوم بحرماننا من مثل هذه البقاع في القدس .

وبناء على ذلك وخلافا لرغبات الامراء ، امر كونت طولوز بنقل معسكره الى جبل صهيون ، وسببت هذه الحركة استياء رجاله الذين لم يكونوا يرغبون في تغيير مكان المعسكر ، والاستمرار في المراقبة ليلا ، وهكذا بقي الاكثريه في المعسكر الاصلي وقله هم الذين ذهبوا الى جبل صهيون ، وظل الكونت يحمي موقعه يوميا بدفع مبالغ طائلة من المال الى فرسانه ورجاله .

وسأستطرد الآن لأتولى ذكر بعض المواقع المقدسة : هناك قبر داود وقبر سليمان ، وقبر الشهيد الاكبر ستيفن ، وهناك ماتت مريم المباركة ، وهنا اكل المسيح وظهر بعد قيامه لحوارييه ولتوماس . وفي هذا المكان بالذات اوقظ الرسل بمجيء الروح القدس .

وبعد الشروع بحصار القدس اخبر ناسك في احد الايام عددا من الأمراء على جبل الزيتون : ان الرب سيعطيكم القدس ، اذا هاجتموها غدا حتى الساعة التاسعة ، واجابه المسيحيون ، ليس لدينا اية آلة من الات الحصار ، فقال الناسك : ان الرب قادر على كل شيء الى حد انه اذا اراد فانكم ستستطيعون تسلق السور بسلم واحد ، لانه مع الذين يعملون من اجل الحق ، وبناء عليه هاجموا

القدس في صباح اليوم التالي وظلوا حتى الساعة الثالثة يقاثلونها
باسلحة الحصار التي استطاعوا تأمينها اثناء الليل ، فدمروا السور
الخارجي واجبروا المسلمين على التراجع نحو السور الداخلي ،
وتسلق عدد ضئيل من المسيحيين الدفاعات الداخلية ، وفي اللحظة
التي بات فيها سقوط المدينة وشيكا ، توقف الهجوم بسبب الوهن
والخوف .

وبعد هذا التخازل راح المسيحيون يبحثون عن الطعام في المناطق
المجاورة واهملوا الاعداد لهجوم جديد ، وآثر كل واحد منهم اشباع
فمه وبطنه ، والانكى من هذا كله انهم لم يصلوا للرب ليخلصهم من
الشرور الكبيرة والكثيرة التي باتت تهدد حياتهم بالذات ، فقد
صدرت مخاطر جديدة عن المسلمين الذين سدوا افواه الابار ،
ودمروا صهاريج المياه ، ومنعوا تدفق العيون ، وكل هذا يذكرنا
بالرب الذي «يحول الانهار الى بركة وعيون الماء الى ارض جافة لمن
يعيشون فيها» وهكذا اصبح الماء شحيحا جدا لما بينت من اسباب

وتتدفق مياه بركة سلوان - وهي نبع كبير عند سفح جبل
صهيون - مرة كل ثلاثة ايام غير انها كانت حسب قول السكان
المحليين ، تتدفق يوم السبت فقط ، وتصبح مستنقعا في بقية الايام ،
ومن المؤكد انه ليس لدينا تفسير لهذه الظاهرة ، باستثناء انها ارادة
الرب ، وتذكر الروايات انها عندما كانت تتدفق في اليوم الثالث ،
كان التدافع المجنون لشرب الماء يجعل الكثيرين يلقون بانفسهم
بالبركة ، ويتسبب هذا في غمار التزاحم الشديد بهلاك كثير من نواب
الحمل والماشية ، فقد كان الاقوياء يتدافعون باستماتة ويخوضون
في البركة الغاصة بالحيوانات الميتة والبشر المتصارعين حتى المصب
الصخري الذي يتدفق منه الماء ، في حين كان الضعفاء يضطرون
الى الاكتفاء بالماء الملوث .

وكان الضعفاء يزحفون على الارض بجوار النبع بافواه فاغرة ،
وقد اخرسهم جفاف السننهم ، يزحفون وقد امتدت ايديهم التماسا

للماء من الذين هم أكثر حظا ، وفي الحقول كانت تقف الخيول والبغال والمواشي والاعنام مع حيوانات أخرى كثيرة لم تعد تقوى على ان تخطو خطوة واحدة ، وكانت هذه الحيوانات تنوي وتموت عطشا وتتفسخ في أماكنها وتملا الجو بروائح الجيف النتنة ، واضطر المسيحيون ، والحال كما وصفت ، الى حمل الماء بجهد ومشقة من عين تبعد فرسخين او ثلاثة ، والذهاب لسقاية مواشيهم هناك ، لكن عندما عرف المسلمون ان رجالنا يروحون جيئة وذهابا في طرق وعرة وهم بدون سلاح كمنوا لعدد كبير منهم ، فقتلوا العديد وأسروا الكثير ، واستولوا على مواشيهم ، وكان مبلغ خمسة او ستة نوميسما (صولدي) لا يكفي لشراء مياه نقية تكفي شخصا واحدا لمدة يوم واحد .

اما الخمرة فلم يرد نكرها الا فيما ندر ، ومما زاد من شدة العطش ، الحر اللافت والتراب الخانق ، والرياح الشديدة ، لكن لعلنا ابدد الوقت في نكر هذه الامور الفانية ؟ المهم انه لم يكن سوى قلة منا يفكرون في الرب او في ضروريات الحصار ، ولم يصل حملة الصليب طلبا لرحمة الرب ، وهكذا كنا نتجاهل الرب في شبداننا ، وهو بدوره لم يهتم بالجاحدين .

وتواترت الانباء في ذلك الحين برسوست من سفننا في يافا ، وجاءت معها ايضا مطالبة البحارة بارسال حامية تتولى حماية ابراج يافا وسفنهم في الميناء ، وكانت يافا تبعد مسيرة يوم عن القدس ، وهي ميناء هذه المدينة ، ولم يكن قد بقي من يافا غير القليل فالموقع قد دمر باستثناء برج واحد بقي سليما في قلعة دممرت تدميرا شديدا ، وفرح الحجاج وبعثوا الكونت جيلديمار كاربينيل ومعه عشرين فارسا وحوالي الخمسين من الرجال ، ثم اردفوه بريموند بيليه مع خمسين من الفرسان ، واخيرا بوليم سابران ورجاله ، وعندما وصل جيلديمار الى سهل على مقربة من الرملة كان هناك اربعمائة من قوات العرب الاقوياء مع مائتين من الاتراك يسدون الطريق .

وأعاد جيلديمار فرسانه ورماته ، الذين كانوا في الصفوف الأمامية ، الى الخلف بسبب قلة عدد رجاله ، ثم مالبت أن زحف ضد الأعداء وهو واثق بعون الرب له ، واندفع الأعداء الى الأمام وهم على ثقة أنهم سيتمكنون من إبادة المسيحيين ، وأطلقوا الذشاب ، واحاطوا بهم ، وقتلوا أربعة فرسان وذلك بالاضافة الى اشارد أوف مونتميريل وكان فارسا شابا نبيلًا يتمتع بشهرة كبيرة ، فضلا عن هذا فتكوا تماما بكل رماتنا وجرحوا آخرين من قوات جيلديمار ، ومع هذا لم يخل الأمر من تكبيدهم بعض الخسائر الفاحشة .

وعلى الرغم من هذه الخسائر لم يضعف الهجوم الاسلامي ، وايضا لم يبب الوهن الى صفوف فرساننا ، ذلك أنهم كانوا فعلا عساكر المسيح ، ولذلك حملتهم الجراح ، لابل الموت نفسه ، على شن الهجوم بقوة أكبر ، وكانوا يفعلون ذلك كلما اشتد الضغط عليهم ، وأخيرا وبعد ان أرهقهم التعب وليس الخوف ، لاحظ قادة الفرقة الصغيرة سحابة كبيرة من الغبار في الأفق ، وجاء ذلك عندما كانت الفرقة على وشك التراجع ، وصدر هذا الغبار عن ريموند بيليه ورجاله الذين غمزوا جيادهم واندفعوا فأتاروا بهجومهم الجنوني كثيرا من الغبار مما أوهم العدو باقتراب فرقة كبيرة .

وهكذا أبيد الأعداء بفضل الرب وأرغموا على الفرار بعدما قتل قرابة المائتين منهم ، وتم الاستيلاء على غنائم كثيرة ، ومرد كثيرة الغنائم الى عادة متبعة بين المسلمين هي أنهم اذا لانوا بالفرار ، وطاردتهم عدوهم مطاردة شديدة يرمون بأسلحتهم ثم بالبستهم وأخيرا يرمي كل منهم بمزاده ، وهكذا قتل هذا العدد الصغير من فرساننا الأعداء المنهزمين وظلوا يفعلون ذلك حتى نال منهم التعب كل منال ، وبعدما أخذوا أسلاب الذين لانوا بالفرار .

وبعد هذا القتال جمعت الغنائم وجرى تقسيمها ، ثم توجه

فرساننا نحو يافا حيث استقبلهم البحارة بفرح كبير بالخبز والنيذ والسمك ، ولم يكثرثوا بالمخاطر فأهملوا سفنهم ولم يعينوا مراقبين للحراسة من جهة البحر في منصة المراقبة لكل سفينة ، وسرعان ما وجد البحارة المنتشون وغير المباليين أنفسهم محاطين من جهة البحر بالأعداء ، وكان السبب الرئيسي هو اهمالهم تعيين خفراء يتولون الحراسة والمراقبة ، وعند الفجر وجدوا انه ليس امامهم فرصة لقتال القوة المتفوقة عليهم ، لذلك تخلوا عن سفنهم ، ولم يحملوا معهم سوى الغنائم ، وبذلك عانت قواتنا الى القدس وهي بشكل مامنتصرة ومهزومة في ان واحد ، ونجحت احدى السفائن ، لأنها كانت متغيبية تقوم بأعمال النهب ، وعندما عانت الى يافا محملة بالغنائم رأت الأسطول المسيحي اسيرا قد أحاطت به قوة أكبر منه ، فغيرت على الفور اتجاهها وعانت بالتجديف والقنوع الى اللاذقية ، ونقلت الى رفاقنا والأصدقاء صورة الحالة الحقيقية لأوضاع القدس .

ولقد عرفنا اننا نستحق ما أصابنا ، لاننا لم نؤمن برسائل الرب ، ولهذا فقد حملة الصليب الأمل برحمة الرب ، وبناء عليه ساروا الى سهل الأردن ، وهناك جمعوا السعف وتعمدوا في نهر الأردن ، وبما أنهم شاهدوا القدس ، فقد خططوا الآن للتخلي عن حصارها والتوجه الى يافا ، ومن ثم العودة بأي شكل ممكن الى بلادهم ، غير ان الرب لم يهتم بأمر سفن من لم يؤمنوا به .

وتمت الدعوة الى عقد اجتماع عام لينظر بالخلافات العامة بين القادة ، ولاسيما بعدما أقدم تانكرد على الاستيلاء على بيت لحم حيث رفع رايته على كنيسة بيت لحم ، كما لو كان يرفعها على ممتلكات علمانية ، وطرح في الاجتماع ايضا قضية اختيار واحد من الأمراء يكون حاميا للقدس اذا مامنحنا الرب اياها ، وقيل وقتها ان النصر سيكون جهدا مشتركا ، ولكن اذا ضاعت القدس فان ذلك سيكون اهمالا مشتركا لأن احدا لم يتول حمايتها .

واعترض الاساقفة ورجال الدين قائلين : من الخطأ اختيار ملك وتعيينه في المكان الذي تآلم فيه الرب وتوج بتاج من شوك ، افترضوا ان الشخص المختار قال في قلبه : انني جالس على عرش داود ممتلك لممتلكاته ، وافترضوا انه أصبح داودا وهو منحط العقيدة والأخلاق ، لاشك أن الرب سيطيح به ويحل غضبه بالناس والمكان ، زد على هذا ان الرسول قد أعلن انه « عندما سيكون قدس الأقداس قد جاء فسيتوقف المسح » لأنه اتضح للناس جميعا انه قد جاء و « علينا اختيار وكيل يتولى حراسة القدس ويقوم بقسمة الأموال والدخول بين حماة المدينة » ولهذا السبب ولأسباب أخرى لم يتم الانتخاب الا بعد ثمانية أيام من سقوط القدس ، ولم يتولد عن هذا النزاع خير ، ولم تتضاعف الامتاعب الناس واحزانهم يوما تلو الآخر .

واخيرا ابلغنا الرب الرحيم الطيب حتى نحترمه وحتى يمنع المسلمين من السخرية بقوانينه اذا سألوا : أين هو ربهم ، لقد ابلغنا بوساطة رسالة من أدهمر أسقف لى بوي ، وعرفنا كيف نسأله وكيف نكسب رحمته ، غير اننا أذعنا أوامر الرب علنا دون ان نربط بينها وبين اسمه ونلك خوفا من ان يعصبيها الناس ، فيكون عقابهم أشد بسبب ذنوبهم ، وقد بعث الرب الينا برسول عديدين ، لكن لكونهم من اخواننا بقيت براهينهم بدون اعتبار .

وأعطى أدهمر في تلك الوقت أوامره الى بطرس ديزيديريوس بقوله : على الأمراء والعامّة وحملة الصليب الذين قدموا من بلاد بعيدة ، والذين هم الآن هنا لعبادة الرب رب كل الحشود ، ان يحرروا أنفسهم من عالم الدناسة ، وليدر كل واحد منهم ظهره للخطيئة ، وقل لهم : اخلعوا بعد هذا احنيتكم وسيروا حفاة بأقدام عارية حول القدس ، ولاتنسوا ان تصوموا ، فاذا امتثلتم لهذه الأوامر ستسقط المدينة في خاتمة الأيام التسعة بعد هجوم

عنيف ، وحذرهم انهم ان لم يفعلوا ذلك فان الرب سسيزيدهم بمصائب أكثر من الماضي .

وبعدما أبلغ بطرس ديزيديريوس سيده الكونت ايزوارد مع اخي أدهمر ووليم هيو وبعض الكهنة بذلك ، دعا هؤلاء السادة المبجلين الى اجتماع عام وخاطبهم بما يلي :

أيها السادة أيها الرجال إنكم تعرفون أسباب الرحلة مع أسباب تعبنا الشديد ، وتعلمون أيضا أننا تأخرنا كثيرا وأهملنا بلا مبالاة إقامة مايلزم من معدات لحصار القدس ، وأكثر من هذا أننا لم نكتف بعدم اكتراثنا في أن يكون الرب ودودا معنا ، بل أثرنا غضبه بكل شكل يمكن أن يتخيله عقل الانسان وفي كل أمر من الأمور ، ثم أننا نبعده عنا وننبذه ونجعله غريبا بسبب دنس أعمالنا ، والآن اذا كنتم ترضون فلندع الماضي جانبا ، ولتعم بين الأخوة روح المغفرة ، وبعد ذلك لنتخل عن كبريائنا أمام الرب ، فندسير حول المدينة المقدسة حفاة الأقدام ، ومن ثم نبتهل لتنزل علينا رحمة الرب بواسطة شفاعة القديسين .

لنصل قائلين ان الرب القادر الذي تخلق عن عرش ملكوته في السماء فأصبح بشرا من أجلنا ، وصار منا نحن عبده ، الرب الذي دخل القدس متواضعا يركب على أتان وسار في موكب تحيط به الحشود و تلوح له وتقدم آيات التكريم ، لكي يعاني بعد ذلك من الآلام على الصليب تضحية منه في سبيلنا ، لنصل لهذا الرب عله يفتح لنا أبواب القدس ويسلمها لنا تمجيذا لاسمه وتكريما ، وهو يصدر أحكامه على أعدائه الذين استولوا عليها بدون حق ، وندسوا مكان الامه ودفنه ، والذين يبذلون الآن كل جهد ممكن لحرماننا من المكاسب العظيمة الموجودة في حرم نزوله الرباني وخلصنا .

ولاقت هذه الأوامر قبولا عاما ، وصدرت التعليمات بأن يتولى رجال الدين قيادة موكب يتبعه الفرسان والرجال الأقوياء ، وأن

يكون ذلك في اليوم السادس من الاسبوع على ان يحملوا الصليبان واثار القديسين ، وينفخوا بالابواق ، ويلوحوا بالأسلحة ، وليسيروا حفاة الأقدام ، وبكل سعادة نفذنا أوامر الرب والأمراء ، وعندما سرنا الى جبل الزيتون وعظنا الناس في موضع صعود المسيح بعد القيامة ، وحرصناهم في هذه المرة قائلين : لقد سرنا وراء الرب الى مكان الصعود ، وبما أننا لن نستطيع فعل المزيد ، فلنقم الآن بالصفح عن الذين أساءوا الينا حتى يكون الرب القدير بنا رحيمًا .

لا أرى من حاجة لقول المزيد عن هذا الموضوع ، فلقد غمرت الجيش روح من التسامح كبيرة ، وقدمنا التبرعات السخية ، وتضرعنا في تلك الأثناء الى الرب سائلين إياه الرحمة ، والحننا بالسؤال أن لا يتخلى عن شعبه في اللحظة الأخيرة ، بعدما جلبهم بهذه الطريقة المجيدة والمعجزة من المسافات النائية فأوصلهم الى مسعاهم من أجل القبر المقدس ، وكان الرب هذه المرة الى جانبنا فانقلب سوء حظنا الى طالع طيب وبات كل شيء على مايرام .

ومع أنني ازحت جانباً الحديث عن أحداث كثيرة ليس بإمكاننا إغفال ذكر الحادثة التالية : أثناء الزحف الصاخب حول مدينة القدس راح المسلمون والأتراك يسيرون على طول أعلى أسوارهم وهم يسخرون منا ويدبسون بالضربات والأعمال البذيئة صليبانا وضعت على أنرعة من خشب بطول الأسوار ، غير أننا اندفعنا - من جهتنا - الى الأمام قدما ولم نأبه بهم واثقين باقتراب رحمة الرب بسبب هذه الاساءات ، وثابرتنا على العمل ليلا ونهارا للاعداد للهجوم النهائي .

وقام غودفري ومعه كل من كونت نورماندي وكونت فلاندرز بتعيين غاستون بيارن للإشراف على العمال الذين كانوا يبنون

الخواجز والسواتر ومعدات الحصار ، وجاء تعيين هذا النبيل بالنظر لكفائته وأمانته ، وقد ثبت أن ذلك كان اختيارا حكيما ، لأن

غاستون وضع نظاما لتقسيم العمل ، وسارع بتنفيذ المهمة في حين اهتم الأمراء بجلب المواد الخشبية ، كما وكلف الكونت ريموند وليم ريكو بعمليات معاتلة في جبل صهيون ، وكلف اسقف البارة بوظيفة الاشراف على المسلمين وسواهم من العمال الذين كانوا يجلبون الأخشاب ، فقد أرغم رجال ريموند مسلمي القلاع التي جرى الاستيلاء عليها على العمل كعبيد ، فكنت ترى خمسين أو ستين رجلا منهم يحملون على اكتافهم دعامة بناء لايقوى على جرها أربعة أزواج من الثيران ، والآن لن أزيد من ارهاقكم بالمزيد من التفاصيل .

لقد عملنا جميعا بكل جد ونشاط وتعاون ، ولم يعق عملنا التراخي أو عدم الرغبة ، وكان فقط الصناع – الذين كانت تجمع لهم الأموال مع رجال ريموند الذين كانوا يحصلون على أجورهم من خزانته – هم وحدهم ممن عمل مقابل المال ، ومن المؤكد أن يد الرب كانت معنا ، فسرعان ما اكتملت الاستعدادات ، وبعد عقد اجتماع عام قرر القادة ان يكون اليوم الخامس هو ساعة الصفر ، وقالوا للناس عليكم في هذه الأثناء ان توقفوا انفسكم على الدعاء والصلوات الليلية ، وقدموا دواب العمل التي لديكم والخدم الذين يعملون لديكم الى الصناع والنجارين الذين يعملون في جر الأخشاب والأعمدة مع القوائم والفروع الضرورية لاقامة سواتر الحصار ، ايها الفرسان انه سيكون نصيب كل اثنين منكم في أعمال البناء اقامة ساتر دائري واحد أو سلم واحد ، اعملوا جميعا في سبيل الرب بكل جد ، فقد شارفت مهمتنا على الانتهاء ، ونشط الجميع في العمل بسعادة ، وحددت مواقع الهجوم الخاصة بكل واحد من الأمراء كما وعينت مواضع آلات الحصار .

وشاهد المسلمون من الداخل اسلحة الحصار المكتملة ، فقاموا

بتدعيم النقاط الضعيفة ، بحيث بدا من المستحيل القيام بشن هجوم ناجح ، ولاحظ غودفري ومعه كونت فلاندرز وكونت نورماندي عمليات التدعيم التي يقوم بها المسلمون ، وردا على ذلك قاموا في الليلة التي تقدمت على اليوم المحدد للهجوم بنقل مواقع أسلحة الحصار من سواتر و حواجز و أبراج الى موقع بين كنيسة ستيفن المبارك ووادي يهوشافاط ، صدقوني ان فك هذه الآلات ونقلها الى مسافة تزيد على الميل ، ومن ثم اقامتها من جديد لم يكن بالأمر الهين ، وصعق المسلمون في صباح اليوم التالي عندما رأوا مواقع الاتنا وخيامنا ، وأبادر الى القول : اننا ايضا دهشنا نحن المؤمنين الذين رأوا يد الرب في كل ذلك .

ولكي ابين لكم سبب حقيقة التحرك الى الشمال ينبغي ان اوضح ان عاملين اثنين كانا وراء تغيير مواقع آلات الحصار ، ففي الشمال هيا استواء سطح الأرض اقترب افضل لمعدات الحصار من الأسوار ، كما ان بعد المكان الشمالي جعله ضعيفا وهذا ماجعل المسلمين يتركونه بدون تحصين ، ولم يكن مجهود كونت طولوز ادنى من ذلك أو اقل عند جبل صهيون جنوبا ، وقد تلقى مساعدة من وليم امبرياكو وبجارتة الجنوبية الذين فقدوا سفنهم - كما ذكرت من قبل - في يافا ، لكنهم كانوا قد أنقذوا الحبال والمطارق والمسامير والفؤوس والمعاول والبلط ، وهذه جميعا ادوات لاغنى عنها ، وسأتخلى الآن عن تعداد هذه التفاصيل واعدد لمواصلة قصة الهجوم على القدس :

و بزغ فجر يوم القتال وبدا الهجوم ، فطبقا لأحسن التقديرات التي قمنا بها مع تقديرات الآخرين كان هناك قرابة الستين الفا من المقاتلين في القدس فضلا عما لايمكن تعداده من النساء والأطفال ولم يكن لدينا من جانبنا أكثر من اثني عشر ألف رجلا من الأقوياء القادرين مع كثير من المقعدين والفقراء ، ومالايزيد - كما اعتقد - عن ألف ومائتين أو الف وثلاثمائة من الفرسان ، ونحن اذ نورد هذه الأرقام و المقارنات هدفنا أن نبين لكم أن جميع الامور

عظيمة كانت أم صغيرة اذا ما أخذناها على عاتقنا باسم الرب فسوف تنجح ، وهذا ما ستثبته الصفحات التالية من كتابي :

وبدأنا أولا بدفع أبراجنا باتجاه أسوارهم ، ثم انفتحت أبواب جحيم المعركة بأجمعها فانهمرت الأحجار من العرادات ، وطارت المقذوفات بالهواء وتساقطت الأسهم كوابل من المطر ، لكن عبيد الرب المتمسكين بإيمانهم بكل عزم تحملوا هذا الهجوم بكل صبر ، وثابروا دون ان يعبأوا بالموت او الانتقام الفوري للمسلمين ، ولم يحسم القتال عند هذه النقطة ، وعندما اقتربت المعدات من الأسوار أمطرها المسلمون وأمطروا المسيحيين معها بالحجارة والسهام والخشب والقش المشتعل ، والمطارق المغطاة بالبقار المشتعل والشمع والكبريت والكتان وقطع الأقمشة ، لقد قذفوا هذا كله على الآلات ، وأحب ان أضيف موضحا ان المطارق كان قد أثبت عليها مسامير بحيث أمكنها الالتصاق بأي جزء تصيبه ثم تشتعل ، وأشعلت هذه المقذوفات المصنوعة من الخشب والقش - التي القاهها المدافعون - النيران التي حالت دون تقدم الذين لم تعق تقدمهم السيوف ولا الأسوار الشاهقة أو الخنادق العميقة .

وكانت الأعمال التي أنجزناها طوال ذلك اليوم رائعة ومدهشة الى حد اننا نشك في ان يكون التاريخ قد عرف ما هو أعظم منها ، ومن جديد ، توجهنا بالدعاء - ونحن على ثقة برحمة الرب - الى قائدنا ومرشدنا الذي هو على كل شيء قدير ، ومع حلول الظلام استولى الخوف على الطرفين ، ومع تحطيم السور الخارجي ، وردم الخندق ، بات الوصول بسرعة الى السور الداخلي أمرا سهلا ، وأصبح المسلمون يذشون من سقوط القدس في تلك الليلة أو في اليوم التالي ، وبالمقابل كان حملة الصليب يذشون بدورهم من ان يدعم المسلمون مواقفهم ، بإبداع طرائق لحرق الآلات القريية ، وسيطر الرعب والتعب والتيقظ والأرق على الطرفين المتصارعين ، فقد عم في معسكرنا شعور الأمل

الواثق ، وسيطر على معسكرهم الفزع المؤلم ، فقد كان المسيحيون يحاصرون المدينة طوعا واختيارا من أجل الرب ، وكان المسلمون يقاومون على مضض من أجل شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

واستمر النشاط غير المعتاد بين صفوف الطرفين اثناء الليل ، وعند بزوغ الفجر بادر رجالنا بكل اندفاع وسرعة الى دفع الات الحصار وجرها الى مواقعها ليبتغوا المسلمين الذين حاصرونا بالانتهم التي كانت تتفوق على الاتنا بنسبة تسعة او عشرة الى واحد ، ولن اقف طويلا عند هذا التفصيل الصغير ، لأننا كنا في اليوم التاسع ، وهو اليوم الذي تنبأ الكاهن بأنه سيكون يوم سقوط القدس بكل تحديد ، وعلى الرغم من تفكك معدات حصارنا بفعل الاحجار المتساقطة كوابل من المطر والروح المعنوية المتخازلة لقواتنا ، التي كان التعب قد اخذ منها كل مأخذ ، فان رحمة الرب المسيطرة والتي لاتقهر كانت حاضرة دائما في جهدنا ، ومع ذلك لايمكنني ان امر بالحادثة الطريفة التالية مرور الكرام ، فعندما حاولت امراتان وضع سحر على احدى الصخور ، انطلقت احدى الاحجار من الالة نفسها تزمجر في السماء لتتضمم بعدها على حياة الساحرتين ، وايضا على حياة ثلاث فتيات كن بالقرب منهما ، وهكذا دمر السحر .

وعند انتصاف النهار كنا في حالة ارتباك وارهاق ويأس نجمت عن المقاومة العنيدة لكثير ممن تبقى من المدافعين ، ولوجود الاسوار العالية التي لايكاد يمكن اختراقها ، وللمهارة الدفاعية الهائلة للمسلمين ، وفي الوقت الذي بدأنا فيه بالترنح واخذ المسلمون يتشجعون ، وصلت اليها رحمة الرب الحاضرة دائما شفاء لنا ، فبدلت تعاستنا سعادة ، ففي اللحظة التي كان فيها مجلس قادتنا يناقش حكمة سحب معداتنا حيث احترق الكثير منها وتحطم بعضها بشكل سيء ، في تلك اللحظة اشار فارس لاعرف اسمه بترسه من فوق جبل الزيتون الى الكونت والى الآخرين بأن يتقدموا

وكان لهذا تأثير فعال على قواتنا المرهقة ، و استأنف بعض حملة الصليب الذين نبت فيهم الحياة من جديد ، هجومهم على الأسوار ، في حين بدأ آخرون بتسلق السلالم والحبال ، وفي الوقت نفسه اطلق شاب سهما مشتعلة بلبادة قطنية على تحصينات المسلمين التي كانت تتولى الدفاع في مواجهة برج غودفري والكونتين ، وسرعان ماأبعثت النيران المدافين عن التحصينات وسرعان ماتمكن غودفري من سحب الجسر الذي كان يدافع عن البرج ، وبينما كان البرج يتأرجح من منتصف البرج سد الهوة بين البرج وبين السور ، وهكذا تدفق حملة الصليب بدون خوف لابل بكل شجاعة واقدام الى داخل المدينة المتداعية .

وسفك تانكرد وغودفري في المقدمة كميات لاتصدق من الدماء وانزل رفاقهما الذين ساروا خلفهما الاما هائلة بالمسلمين ، وينبغي ان أقص عليكم نبأ حادث مدهش ومثير ، فقد توقفت المقاومة في واحدة من مناطق المدينة بشكل عملي ، ولكن المسلمون في المنطقة المجاورة لجبل صهيون قاتلوا ريموند بكل شراسة كما لو انهم لم ينهزموا ، وبعد سقوط القدس وأبراجها بات بإمكان المرء رؤية أفاعيل مثيرة ، فقد قطعت رؤوس بعض المسلمين بلا رحمة ، في حين اخترقت الأسهم الموجهة من الأبراج آخرين ، وفي الوقت نفسه عذب آخرون بشدة لوقت طويل وأحرقوا حتى الموت في النار المتأججة وتكدست في الطرقات والبيوت الجثث والرؤوس والأيدي والأقدام، وبالفعل كان الفرسان والرجالة يروحون ويجيئون ذهابا وايابا فوق الجثث .

دعوني أخبركم ان هذه الوقائع كانت حتى الآن ذات تفاصيل قليلة وتافهة ، وانني لأجد قصة أخرى هامة عندما نأتي الى معبد سليمان المكان المعتاد للتراتيل والصلوات والعبادات ، هل سأحكي الذي جرى هناك ؟ لو أنني أخبرتكم لما صدقتم ذلك وقبلتوه مني ، ولعله يكفي ان أحكي لكم أنه في معبد سليمان ، وفي الأروقة خاض حملة الصليب بخيولهم في الدم الذي وصل الى ركبهم و سروج خيولهم

وفي يقيني إن في هذا عدالة ربانية تتمثل في أن يتلقى معبد سليمان دم المسلمين الذين شتموا الرب هناك لسنين طويلة ، وسلموه الى ريموند مقابل عهد بالأمان ، ومع سقوط المدينة كان تعويضنا رؤية الحجاج عذد القبر المقدس ، وتصفيق الأيدي والابتهاج وانشاد نشيد واحد جديد للرب ، فقد قدمت ارواحهم للرب المنتصر الظافر صلوات الشكر والمديح التي لم يستطيعوا شرحها بالكلمات .

لقد كان يوما جديرا بالتقدير ، وسعادة ما فوقها سعادة ، وسرورا سرمديا ، ومحصلة لكننا وتحقيقا لحبنا أوجد كلمات وانشيد جديدة للجميع ، وبدل هذا اليوم - الذي أؤكد أنه سيخلد على مدى العصور و الدهور ، أحزاننا وصراعاتنا الى سعادة وابتهاج ، ثم ان هذا اليوم قد ازال جميع أشكال الوثنية ، وثبت المسيحية و أعاد الينا ايماننا ، ان هذا هو « اليوم الذي صنعه الرب سنبتهج فيه ونسعد » ، وهذا صحيح لأن الرب أشرق علينا في ذلك اليوم و باركنا .

ورأى العديد اللوزد أدهم ، أسقف لى بوي في القدس ، في هذا اليوم ، واكد الكثيرون انه كان يمهد الطريق فوق الأسوار ويحث الفرسان على اللحاق به ، وجدير بالتذكير أيضا أنه في مثل هذا اليوم أخرج الرسل من القدس وتفرقوا في جميع أنحاء العالم ، وفي هذا اليوم خلص أبناء الرسل المدينة من أجل الرب و الأبساء ، وسيخلد هذا اليوم وهو الخامس عشر من تموز لنكرى مدح الرب وتمجيد اسمه ، الذي استجاب لصلوات كنيسته و أعاد القدس بالايمان والبركات الى أبنائه ، و أعاد أيضا أراضيها التي وعد بها الأبء ، ورتلنا في ذلك الحين صلاة القيامة ، حيث أنه قام هوبقدرته في ذلك اليوم من بين الأموات ، و خلصنا برحمته.

الفصل الخامس عشر

الوقائع التي أعقبت سقوط القدس و معركة عسقلان

سأتحول الآن للاهتمام بأمور أخرى حيث أن في الوصف المتقدم كفاية ، فبعد مرور ستة أيام أو سبعة انصرف الأمراء - طبقا لعادتهم - نحو انتخاب ملك يدير المملكة ، ويجمع ضرائب المنطقة ، ويحمي الريف من المزيد من الدمار ويعمل كمستشار للناس ، و في أثناء المداولات تجمع بعض من رجال الدين وعبروا للأمراء عن آرائهم وقالوا : اننا نشيد بتحرككم ، ولكن بما أن المسائل الروحية تتقدم على المسائل الدنيوية ، فإن السلوك القويم الصحيح يتطلب أن تنتخبوا أولا قائدا روحيا ، ثم تعمدون بعد ذلك إلى انتخاب حاكم علماني ، وإنكم اذا لم تفعلوا ذلك فلن نعترف باختياركم ، ولم ينجم عن هذا غير اغضب الأمراء والاسراع بالانتخاب .

و لا بد من أن أوضح أن الضعف انتاب صفوف رجال الدين في ذلك الوقت ، أولا بسبب موت اللورد أدهمر أسقف لى بوي ، الذي كان يكبح جماح الجيش ويهدئه بأعمال تثير الاعجاب ومواعظ مؤثرة مثلما فعل موسى ، ثم بعد ذلك موت وليم أوف أورانج ، وهو رجل مبجل وأسقف كرس نفسه لحمايةنا ، وكان قد مات في معركة النعمان ، و هكذا لم يقف بعد موت هذين الرجلين الطيبين في وجه الأمراء سوى أسقف البارة مع عدد صغير من الكهنة ، أما أسقف مارتوانا ، الذي كان يسلك سلوكا منحرفا عندما نال بطريق الغش والخداع كنيسة بيت لحم ، فقد وقع في أسر المسلمين بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، ولم يظهر بعد ذلك أبدا .

استخف الأمراء بنصيحتنا واحتجاجنا وشجعوا ريموند صنجيل

على قبول الملكية ، لكنه اعترف أنه يرتجف لدى سماعه اسم ملك في القدس ، ومع ذلك أعلن أنه لن يعترض سبيل أي شخص آخر يقبلها ، وهكذا وقع اختيارهم على غودفري ، وأعطوه لقب « حامي القبر المقدس » ، وما لبث غودفري أن طلب من ريموند تسليمه برج داود ، واعترض الكونت بقوله : إنه كان يخطط للبقاء في المنطقة حتى عيد الفصح ، وطلب أن يعامل هو ورجاله حتى ذلك الحين المعاملة اللائقة ، ورد الدوق أنه سيكون آخر من سيتخلى عن البرج ، وهكذا تطور الخلاف بينهما ، وكان كل من كونت فلاندرز و كونت نورماندي يؤيدان غودفري وذلك فضلا عن جميع رجال ريموند ، الذين اعتقدوا أن الكونت سيعود إلى لانجويديوك بمجرد فقدانه لبرج داود ، ولم تكن هذه هي المعارضة الوحيدة التي صادفها من أتباعه البروفانسيين ، لأنهم كانوا - في وقت متقدم - قد نشروا أكاذيب قصدوا أن يحولوا بها دون انتخابه ملكا .

وعندما تخلى الرفاق و الأصدقاء عن ريموند تم تسليم البرج إلى أسقف البارة و عهد به إليه إلى أن يتم الفصل في هذه القضية ، لكن ما لبث ريموند أن وجد الأسقف يقوم بدوره بتسليم البرج إلى غودفري دون أن ينتظر قرارا حوله ، وعندما اتهم الأسقف بأنه لم يكن أميناً ، أجاب أنه فعل ذلك مرغما ، وأنه عومل معاملة فظة ، ولقد علمت أن أسلحة كثيرة قد حملت إلى منطقة الأسقف ، أي بيت البطريك الذي كان يقع على مقربة من كنيسة القبر المقدس ، وتحديث الأسقف عن استخدام القوة الجسدية ضده ووجه اللوم إلى رجال ريموند سرا .

وبعد خسارة البرج استشاط الكونت غضبا ، واستاء من أتباعه وقال : إنه قد اعتدي على كرامته ، وأنه لهذا سيغادر البلاد ، وهكذا توجهنا من القدس إلى أريحا ، وجمعنا هناك السعف وأتينا إلى نهر الأردن ، و عملا بتوجيهات بارثلميو صنعنا طوفا من الفروع الصغيرة ، وضعنا ريموند عليه ، وجدفنا عبر النهر ، ثم طلبنا من

الحشد المجتمع هناك أن يصلي من أجل حياة الكونت والأمراء الآخرين ، و اغتسلنا في النهر المقدس ، وكان الكونت ريموند لا يرتدي سوى قميصا وسروالا جديدا ، لكن لماذا أصدر رجل الرب بطرس بارتلميو مثل هذا الأمر ؟ لم يتكون لدي أدنى فكرة حوله حتى الوقت الحالي .

وعند رجوعنا إلى القدس بعد أداء هذه المهمة ، اختار بعضهم أرنولف كاهن كونت نورماندي بطيركا ، وذلك خلافا لرغبة رجال الدين الطيبين ، الذين اعترضوا لأنه لم يكن بعد بمرتبة معاون شماس ، وكان من أصل رهباني ، والأهم من ذلك كله أنه أتهم بمعاشرة النساء في أثناء الرحلة حتى أنه كان موضوعا لقصص فاحشة ، ولا حاجة بي إلى القول إن أرنولف التموح قد تجاهل قرارات الكنيسة ، وقد حط بمولده المشين وانعدام ضميره من شأن رجال الدين الطيبين ، ولقد رفع نفسه إلى الكرسي البطريركي بمصاحبة التراتيل و الأناشيد والتصفيق الكبير من الناس ، ولم يخش أرنولف أن يحل به العقاب الرباني الذي حل بأسقف ماتورانا الذي حرص على انتخاب أرنولف ووجهه ، فقد ظل يأخذ دخل الكنائس من رجال الدين الذين كانت لهم بيع عند قبر الرب ، أو من الذين تلقوا الرسوم مقابل العناية به .

وما أن استقر أرنولف بالسلطة حتى راح يسعى بمساعدة السكان المحليين للتعرف إلى مكان الصليب الذي كان يعبده الحجاج قبل استيلاء الأتراك على القدس ، ولم يوضح هؤلاء السكان موقعه ، ومضوا في اللجاج إلى حد أنهم أقسموا أنهم لا يعرفون شيئا عنه ، غير أنهم في النهاية أرغموا على أن يقولوا : إن الوحي يقول أنكم شعب الله المختار ، و أنكم تخلصتم من المحن و أعطيت لكم القدس مع مدن ، أخرى كثيرة ، و لم يكن ذلك بفضل قوتكم الكبيرة بل ارادة من رب غاضب أعمى أهل الكفر ، وقد منحكم الرب قائدكم أبواب المدن التي لا يمكن اختراقها ، و كسب لكم معارك رهيبة ، و ما دام الرب إلى جانبكم ، فلماذا نصر على أن نخفي آثاره عنكم ؟ ثم

قادوا حملة الصليب إلى قاعة في الكنيسة ، وهناك نقبوا عن الصليب و سلموه لهم ، وهكذا سعدنا ومجدنا الرب القدير ، و شكرناه حيث أنه لم يعد إلينا مدينة الآمه فقط بل منحنا رموز صلبه و انتصاره ، حتى نتمسك به أكثر ، ونحتضن الايمان ونكون أكثر يقينا لأننا رأينا الآن آثار خلاصنا .

وكما ذكرنا قبل ذلك كان في هذه الأثناء غودفري يحتفظ بالقدس بموافقة الجميع باستثناء ريموند الذي أثار حنقه الحزن والظلم بسبب ضياع برج داود ، والذي بلا شك هو مفتاح مملكة يهوذا ، وبناء عليه وضع الخطط ليعود بجزء كبير من البروفانسيين ، ومهما يكن من أمر جاءت الأخبار أن ملك مصر قد وصل إلى عسقلان مع قوة كبيرة من المسلمين ، بهدف مهاجمة القدس ، وقتل الفرنجة ممن هم في سن العشرين و ما فوقها ، و أسر الباقين مع الفرنجيات برجال من بلاده ، وتحدثت الأقاويل أنه سيزوج شباب الفرنجة بنساء من جنسه ، والنساء الفرنجيات برجال من بلاده ، وبذلك يربي جيلا من المحاربين من الأصل الفرنجي .

وجعلته خططه العملاقة يتجح أنه سيعامل أنطاكية و بوهيموند المعاملة نفسها ، فضلا عن هذا كله إنه سيتوج نفسه في دمشق و المدن الأخرى ، زد على هذا رأى بعد دراسة لحجم جيوشه القوية من الرجالة والفرسان ، أن الأتراك لم يكونوا شيئا ، و الفرنجة الذين هزموا الأتراك أيضا ليسوا شيئا ولم يكتف بهذا بل جدف بحق الرب بقوله : إنه سيدمر مسقط رأس الرب و المزود الذي رقد فيه ، و مكان الآلام و الجلجلة ، و بالذات البقعة التي تفجر فيها دم الرب المصلوب ، والقبر الذي دفن فيه الرب وجميع البقاع المقدسة الأخرى في مدينة القدس والمناطق المحيطة بها ، وازداد تبجحا فقال : أنه سيخرج الآثار المقدسة من تحت الأرض و يحطمها و يسحقها و ينثر ترابها فوق البحر ، حتى لا يبحث الفرنجة بعد ذلك خارج بلادهم عن بقايا الرب التي تكون قد ضاعت و ابتلعها البحر .

و إثر سماع هذه الاقاويل و الاخبار الأخرى حول الحشود الضخمة التي جمعها هذا الطاغية عند عسقلان ، و هي مدينة تبعد عنا مسيرة يوم و نصف اليوم ، اجتمع امرأونا مع رجال الدين ، ثم سار حملة الصليب المحتشدون حفاة الأقدام أمام القبر المقدس ، وطلبوا الرحمة و الدموع تملأ عيونهم ، طلبوها من الرب ، و سألوه ان يخلص شعبه الذي نصره في الماضي ، كما توسلوا إليه الا يسمح بأبي تدينس لمكان صلبه الذي تم تطهيره توا من أجل اسمه ، ثم أتينا إلى معبد الرب حفاة الأقدام نلتمس عونه بالأغاني و التراتيل و الذخائر المقدسة ، و هناك انبعثت صلواتنا من أعماق كياننا و تدفقت أمام الرب و تضرعنا إليه ان يتذكر تدفق بركته في المكان نفسه « إذا كان شعبك قد أخطأ في حقك ، و كان التغيير بمثابة تكفير ، و أتوك مصليين في هذا المكان فاستمع اليهم من السماء يا رب و خلصهم من أيدي اعدائهم » (انظر سفر الملوك ٨)

و بعد مباركة الأسقف وضع القادة خطط المعركة ، ووسائل حماية القدس ، ثم رحل غودفري و فرسانه للتحقق من صدق الاقاويل المتعلقة بالملك ، و بعدما وصلوا إلى سهول الرملة بعثوا بأسقف مارتوراننا ليطالع الكونتات في القدس على حقيقة الحال ، و عندما تأكد القادة من وقوع المعركة أصدروا نداء إلى جميع الرجال الاقوياء ، و صلوا للرب ، و انطلقوا خارجين من القدس يحملون كامل اسلحتهم و تتقدمهم الحربة المقدسة ، و في اليوم نفسه وصلوا إلى السهول ، و تحركت في اليوم التالي جيوشنا و زحفت إلى الأمام في تشكيلات يحيط بها الحراس من كل جانب .

ومع الغروب اقتربنا من نهر يقع على الطريق من القدس إلى عسقلان ، و شاهدنا عربا يرعون قطعانا من الماشية من الأغنام و الجمال الكثيرة ، فأرسلنا مائتا فارس للاستطلاع ، لأن العدد الكبير من العرب و المواشي جعلنا نعتقد ان قتالا سيذشب ، و كما قلنا من قبل سرنا في تلك الأثناء في تسعة صفوف ، ثلاثة في الساقة ، و ثلاثة في المقدمة و ثلاثة في القلب ، كي نواجه اي هجوم علينا بثلاثة

صفوف ، حيث يكون القلب على استعداد دائم لمساندة المؤخرة و المقدمة ، و هرب الرعاة العرب لدى مشاهدتهم لفرساننا ، ولو أن الرب أعانهم كما أعاننا كانوا سيدافعون عن مواشيهم ، ذلك أن عددهم وصل في الواقع إلى ثلاثة الاف ، بينما كان جيشنا يضم ألفا و مائتين من الفرسان ، و لم يكن لدينا أكثر من تسعة الاف من الرجال ، و بعد فرارهم حصلنا على كميات هائلة من الغنائم ، و أسرنا و قتلنا عددا ضئيلا من العرب ، و لما كان النهار على وشك الانتهاء ، ضربنا الخيام ، و أرغمنا الأسرى على الكشف عن خططهم ، و عن مدى استعدادهم ، و عن أعدادهم و قواتهم ، و اعترف الأسرى أن العرب يريدون حصار القدس ، و من ثم أن يطردوا و يأسروا أو يقتلوا الفرنج جميعا ، و أضافوا أن أميرهم الذي ضرب مخيمة على مسافة خمسة فراسخ منا ، سيرحف نحونا في اليوم التالي ، و لم يتجرا الرعاة على تقدير حجم جيشهم تقديرا قاطعا ، لأنه كان يتزايد يوما بعد يوم ، أما عن دورهم ، فقد أوضحوا أنهم كانوا مجرد رعاة شرعوا في بيع مواشيهم إلى الجيش المصري

و استعدادا للصدام المقبل أحل حملة الصليب كل واحد منهم الآخر من دنوبه التي اقترفها بحقه أو لم يقترفها ، و باتوا في هياج كبير إلى درجة أنهم لم يأبهوا بالتقارير المتعلقة باستعدادات العدو ، و في غمرة الثقة اعتقدوا أن العرب سيكونون أكثر جبنا من الغزلان و أكثر وداعة من الحملان ، و تولدت هذه الثقة من إيماننا أن الرب كان إلى جانبنا في الدروب الأخرى ، و أنه بسبب كفر الوثنيين ، سوف يبدأ وحده بمعاقتهم حتى و إن كانت قضيتنا واهية ، و هكذا أثرتنا أن نعد الرب مدافعا عنا و أننا معاونوه ، و صدرت الأوامر انذاك إلى الجيش لأن يكون الجميع على أتم استعداد للمعركة وقت الفجر ، و أن ينضم كل فرد إلى قوات قائده ، و الا يلمس أي منا الغنائم حتى ينتهي القتال و إلا صدر بحقه قرار بالحرمان ، و قضينا ليلة بأدسة بدون خيام و مع قليل من الخبز ، و بدون نبيذ ، و

بكمية ضئيلة من الطحين و الملح ، إنما كانت امداداتنا من اللحم - على الأقل - في وفرة الرمال ، و هكذا اكلنا اللحم ، و استخدمنا لحم الضأن بدلا من الخبز .

و عند حلول الفجر قرعت الطبول و صبحت الأبواق مستدعية الجيش و موقظة له ، و هكذا تحركنا عند اشراق شمس النهار ، و الحرس مرتبون على الجوانب كلها حسبما أوضحنا من قبل ، و تحركنا قدما نحو معسكر المسلمين ، و كان المسلمون غارون في معسكرهم اعتقادا منهم أن الفرنجة سيبقون قرب أسوارهم عند سماعهم بقدمهم ، و بعدما وصلتهم أخبار فرار الرعاة و قتلهم دعاهم ذلك الى الظن في قرارة انفسهم أن الفرنجة قدموا من أجل الأسلاب ، و بعد حصولهم عليها سيعودون الآن أدراجهم .

وفي الحقيقة كانت تصلهم تقارير يومية عن حالات الفرار من القدس وعن ضالة حجم جيشنا ، وعن الوهن الذي أصاب رجالنا وجيادنا ، وكانوا متأكدين - وقد وضعوا ثقتهم في حجم قواتهم وقدراتهم - أنه بإمكانهم اغراقنا ومعسكرنا ببصاقهم ، وسمعنا أن منجموهم قد نصحوهم بعدم التحرك أو القتال قبل اليوم السابع من الاسبوع ، وحثوهم أن التحرك قبل ذلك الموعد لن يكون مفيدا .

وحسبما أوضحنا من قبل تحركنا في تسعة صفوف ، وضاعف الرب حجم جيشه الى حد بدونا فيه أننا نبلغ حجم القوات العربية ، وحدثت هذه المعجزة حين شكلت المواشي التي حررناها قطعانا ، و سارت خلفنا دون أن يوجهها أحد ، حيث كانت تقف حين نتوقف عن السير ، وتجري حين نسرع الخطا ، و تسير إلى الامام إذا فعلنا ذلك ، ولم يعد في مقدورنا احصاء البضائع و لاتقدير كميات الاسلحة والخيام التي استولينا عليها ، وعندما شاهد العرب نهب العديد من رفاقهم ، ونهب الفرنجة لمعسكرهم بكل شغب وأمان ، توقفوا عن القتال وقرروا : أنه طالما من المحتم علينا الفرار فقيم الانتظار ؟

واذا كان المسيحيون الذين اجهدهم الزحف وهدمهم التعب والجوع
والعطش ، قد سحقوا قواتنا بهجوم واحد وهم على هذه الحالة ،
فما الذي سيفعلوه بنا اذا مانالوا قسما من الراحة واستردوا
بأسهم ، لقد حققوا النصر علينا وهم نصف احياء ومستضعفين
واقعوا في قلوبنا الرعب .

ونتيجة لهذا ، عاد العرب وقد اسقط في ايديهم - ماعدا بعض
الاستثناءات إلى عسقلان التي تبعد عن معسكرنا مقدار ميل واحد
وقرر ريموند أن يبعث بوهيموند ، وهو رجل تركي ، الى الأمير
يحمل مشروع سلام ، وليذكره أنه حين رفض تسليمنا القدس اضطر
الى قتالنا وكان على بوهيموند أن يقرر في الوقت نفسه الموقف ،
وأن يرى ما إذا كان الأمير يخطط للفرار أم للقتال ، وليتبين كيف
كان رد فعله ازاء الهزيمة ، وكان بوهيموند ، مع أنه تركي الأصل ،
يتكلم بعدة لغات ، وماهرا وأريبا ، ومخلصا لنا أيضا ، وقد سمي
بوهيموند بسبب أن بوهيموند الكبير كان قد تلقاه عند جرن المعمودية
حين ارتد عن الاسلام وجاء إلينا برفقة سلاحه وزوجته .

وها هنا ينتهي بسعادة كتاب ريمون دي جيل